عبد العزيز بنعبد الله
أستاذ الحضارة والفن (كلية الآداب)
الامين العام لمركز تنسيق التعريب في العالم العربي

معطيات الحضارة المغربية

الطبعة الثالثة المطولة لكتاب مظاهر الحضارة المغربية
(مقرر في السلك الجامعي ومدارس المعلمين)

الجزء الثاني

●

نشر وتوزيع
دار الكتب العربية
الربـــاط

القسم الأول:

المظهر الحضاري الاجتماعي

الفصل الأول :

المرأة المغربية

يعتقد المؤرخون أن جميع الاديان والامم قبل العرب ، ساءت الى المرأة فقد كان الاغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التى لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل وكان جميع قدماء المشرعين يظهرون نفس القسوة على المرأة ومن ذلك قوانين الهندوس وكان الصينيون والروس والايطاليون والاسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة كما تدل على ذلك الامثال السائرة عندهم وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والاغريقية الرومانية والحديثة المرأة — كما يقول جوستاف لوبون — من فصيلة الاماء او الصبيان وقد انعقد ابان البعث النبوى مؤتمر في بلاد الرومان تساءل هل للمرأة روح واجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشترى ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء .

وتطورت الآراء فى أوربا حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر فى نظريات اوكست كونت الذى هو ابعد الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الاباحية فى المرأة .

فما هو الوضع الذى أعطاه هذا العالم للمرأة فى فلسفته الايجابية التى كان لها اكبر الاثر فى تكييف نظريات عصره فى الميدان الاجتماعى ؟

يقول الفيلسوف : ان الرجل والمرأة يهدفان الى غايات متباينة فى الحياة فمرمى الرجل هو العمل وغاية المرأة الحب والحنان والواجب يدعو الرجل الى قيادة نشاط الامة بينما على المرأة الانصياع وبذل النصيحة والتأثير الاخلاقى والتهذيب لانها تشخص الحب وترمز الى قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب فقوى الجنسين متكاملة واذا ما تناسقت هذه القوى فيما بينها فانها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية .

وهذا النظام الذى يجعل المرأة خاضعة للرجل يسند اليها مهمة رائعة فى الحياة الخاصة بينما يحظر عليها التسرب الى الحياة العمومية ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد اجوست كونت الذى أخذ عليه انصار حرية المرأة حصرها فى نطاق ضيق ولكن « الفيلسوف الايجابى » يرد على خصومه بأن انافة الرجل على المرأة هو ظاهرى فقط لان للمرأة تفوقا ناصعا على الرجل فى الميدان الاجتماعى لانها مجبولة على المرونة

الاجتماعية وهي عامل المحافظة والتوازن في الهيكل الاجتماعي وحتى في الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة لان لهما حقوقا وواجبات مختلفة فالرجل قوام على البيت وهو الذى يعول المرأة كما يقول الفيلسوف العصرى لان المرأة يجب ان تجرد من هموم المادة فناموس التطور الحديث يقضي في فلسفة كونط الايجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوما عن يوم وتجريدها أكثر ما يمكن من كل عمل خارجي لكفالة وجهتها العاطفية ويذهب هذا الفيلسوف الى حد حرمان المرأة من الارث بالمرة نظرا لكون التكاليف المادية منوطة بالرجال وحدهم .

ثم جاء العالم برودهون فذكر في كتابه «العدالة» ان الرجل والمرأة غير متساويين وانهما متكاملان وبرهن على ان الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح : ماديا وفكريا وأدبيا فالتفوق المادى ظاهر والتفوق الفكرى راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الاشياء فهي قادرة على تصور الامور منفصلة بعضها عن بعض ومن هنا جاء انصرافها للروحيات والشعر لا للعلوم .

فللمرأة القدرة على الاحتذاء لا على الابتكار والخلق لهذا لم نراها في مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافا علميا او اسست مدرسة ادبية او فنية وقد ذهبت مدام جورج سان الروائية الفرنسية الشهيرة الى حد القول بان « المرأة بليدة بالطبع » ولا شك ان هذا الحكم الصارم الذى صدر من امرأة ضد المرأة راجع الى الوضع الخاص الذى يجعل المرأة في نظر برودهون محرومة من « روح الجمع والتاليف » عاجزة عن سبر غور الاشياء وادراك الروابط الدقيقة التى تجعل من جزئيات مختلفة كلا متناسقا ووحدة متراصة فهي تفهم كل فكرة على حدة ولكنها تتقاعس عن تصور الفكرة العامة فالرجل اقوى فكريا من المرأة بنسبة تسعة الى اربعة وخلقيا بنسبة ثلاثة الى اثنين ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بان الرجل يفوق المرأة في المجموع بنسبة سبعة وعشرين الى ثمانية .

والمرأة تفوق الرجل في الجمال ومن هنا تقيده وتحدوه الى العدالة وميزة الجمال هذه هي التى تضفي على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل .

والجمال هنا جسماني وفكرى لان جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما تتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيتها التى هي مرآة للرجل فكثيرا ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية الا بفضل مثالية المرأة .

أما ميشلي Michelet فانه استمد نظريته في المرأة من الثورة الفرنسية وقد ذكر في كتابه « المرأة » ان دور هذه في الحياة هو اضفاء طابع السمو على كل شيء حولها فهي الشعر الذى يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته وهي

الينبوع الخلقي في العائلة كما أن الدين هو مثال الفضيلة في المجتمع فالمرأة هي الطبيب الحق .

تلك نظريات فلسفية في المرأة كان لها طبعا تأثير كبير في التطور النسوى في أوربا في العصر الحديث مما جعل المرأة تتحرر في جرمانيا مثلا بفرض ثقة كاملة في دورها الاجتماعي والتهذيبي وكذلك في فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولمشاطرة الرجل في الحقل الأدبي الكتاب والتأليف .

ولكن تطور العلوم ساعد المرأة اكثر من دعوة الفلاسفة الى الانبثاق فخرجت المرأة في أوربا الى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة

واذا كانت المرأة الاوربية قد تحررت داخل اطار الاعراف فان القوانين المتعلقة بها لم تتغير الا قليلا فهي ما زالت سجينة القانون لا سيما في فرنسا حيث لا يطلق لها مثلا كامل التصرف في مالها كما عند المرأة المسلمة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ 1907 .

فقد تمتعت المرأة العربية حتى قبل الاسلام بمركز اجتماعي لم تحظ به النساء في كثير من أقطارأوروباحتى في العصورالحديثة وقد ذكر كوستاف ولوبون أنالاسلام كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعي خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى والقرآن قد منح المرأة حقوقا ارثية بأحسن مما في اكثر قوانيننا الاوربية .. واذا اردنا ان نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء وجب أن ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب فقد ظهر مما قصه المؤرخون انه كان للمرأة من الشأن ما اتفق لأخواتها حديثا في أوربا وذلك حين انتشار فروسية عرب الاندلس وظرفهم (حضارةالعرب ص 488) وقد لعبت المرأة المسلمة أدوارا في منتهى الخطورة أيام كان منها النساء العالمات البارعات والشواعرالماهرات ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق وفي العصر الاموى في الاندلس .

نعم ان المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامي الذى خولها الاسلام اياه مما جعل تطورها يتحجر أحيانا وقد أشار ابن رشد الى سوء وضع المرأة في الشرق من عدم تمكينها من اظهار قواها كأنها لم تخلق الا للولادة ، وارضاع الطفل .

ولعل الغريب في النظريات الفلسفية هو ان ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم وذلك حين أكد في تعليقه على جمهورية افلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع وانما هو اختلاف في الكم اى ان طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن اضعف منهم في الأعمال والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال

الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال .

صقلت الحياة العربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين منهن اروى بنت عبد المطلب وأم الخير الخطيبة وأميمة ام تابط شرا والحارثية المشهورة بالحماس والفخر وحليمة الموصوفة بالحكمة وحميدة التى كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيبا تهجوه بالشعر حتى خشى لسانها العرب وسعدى التى تغنت بعشقها وصفية ابنة مسافر التى تلونت فى أساليب البلاغة وعمرة ذات الشعر الحكم وراوية العرب وعمرة الخثعمية الحماسية وفاطمة الخثعمية الكاهنة وفاطمة الخزاعية التى لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والامثال وناجية التى شاركت فى الحروب وحرضت على القتال

وفى هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما بلغته المرأة فى المجتمع العربى قبل الاسلام من مكانة فى الادب والشعر فى أدق جوانبه وأعرق فنونه .

وعندما جاء الاسلام انفسح الميدان أمام المرأة فشاركت الرجل فى العلوم النقلية والعقلية وطرقت أبواب الشعر وابتكرت فى الغناء وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تقرض الشعر سليقة ذلك ان الاسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن منهن حفصة بنت عمر (البلاذرى ص 458)

وقد ترعرعت فى أحضان الاسلام الآلاف من النساء اللواتى كرعن اصناف العلوم حتى نافسن الرجال وفرضن وجودهن وأصبحن أستاذات لكبار علماء عصرهن وقد ترجم ابن حجر فى الاصابة 1543 امرأة كان من بينهن العالمات والفقيهات واللغويات والمحدثات (ج 4 من ص 424 الى ص 984) وخصص الامام النووى فى تهذيب الاسماء والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد والسخاوى فى الضوء اللامع حيزا كبيرا لترجمة النساء العالمات وقد ذكر السخاوى ان السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه فى القاهرة وسمع هو منها فى دمشق وقد اتهم الذهبى اربعة ءالاف من المحدثين ولكنه قال عن النساء المحدثات « ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها » (ميزان الاعتدال ج 3 ص 395) وترجم السيوطى 37 شاعرة واقتطف نماذج رائعة من اشعارهن فى كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم ب « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » وتتلمذ الامام ابن عساكر الى احدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم (ياقوت ج 5 ص 140 والنعيمى ج 1 ص 101) وقد أفرد المقرى فصلا لنساء الاندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن كما تتلمذ عليهن ابن الاثير والحافظ الذهبى مؤرخ الاسلام .

وقد اشار الذهبى الى زينب بنت سليمان بن هبة الله وقد تلمذ لها (المشتبه فى أسماء الرجال طبعة ليدن عام 1863 م ص 11) كما اشار الى عدة شيوخ أخذوا عن شهدة التى من طبقتها تجنى الوهبانية (ص 69) ومن النسوان الاستاذات اللواتى

ذكرهن ست الأدب بنت مظفر بن البرني روى عنها جلال الدين عبد الجبار بن عكبر (المشتبه ص 31) وتحية الرسبية شيخة مسلم بن ابراهيم (ص 71) وتقية الارمنازية الشاعرة وهي بديعة النظم ماتت في حدود 580 هـ وتقيتان عالمتان أخريان (ص74) وحبرة البلوية الشاعرة التابعية (ص 86) ورابعة الفرضية تلميذة الجوهري واختها فاطمة التي روت عن ابي جعفر بن المسلمة (ص 122) وشرف النساء بنت الابنوسي البغدادية (ص 125) وحيابة شيخة ابي سلمة التبوذكي (ص 139) وعالمات أخريات (ص 162 — 168 — 172)

واشار ابن القاضي الى ام هانيء بنت الهوريني شيخة السيوطي (درة الحجال ص82) وخديجة بنت محمد المقدسية تلميذة الزبيدي وابن صباح وخديجة بنت عبدالرحمن المقدسية تلميذة القزويني والزبيدي (توفيت عام 701) وخديجة بنت المراتي سمعت من الزبيدي ثلاثيات البخاري وسمعت الفخر الاربلي (توفيت عام 999) وخديجة بنت يوسف ابن غنيمة البغدادية ولدت بدمشق وسمعت من ابي نصر الشيرازي (توفيت عام (699 هـ) (درة الحجال ص 141) وزينب الصالحية المسندة وزينب البغدادية المسندة الرحالة وزينب الحرانية ثلاثتهن اخذ عنهن ابن رشيد السبتي عام 684 (ص 150) وشامية الصديقية الشيخة المسندة امة الحق سمعت من ابن حنبل الرصافي ومن جدها ابي الفتوح ذكرها ابن الزبير الاصغر في مشيخته (ص 483) هدية المقدسية روت البخاري عن ابن الزبيدي سمع عنها جماعة توفيت عام 699 (ص 484) ام علي هدية البغدادية سمعت من ابن الزبيدي وسمع عنها جماعة وكانت قابلة توفيت عام 712 هـ (ص 484) وزيرة ست الوزراء بنت عمر البخاري من ابن الزبيدي ومسند الشافعي وروتهما بالشام ومصر توفيت عام 722 هـ (ص 485)

وتعرض بابا السوداني الى رحمة بنت الجنان التي كانت تحفظ أحاديث كثيرة في الصحاح وتحيط بحفظ الادعية الواردة وكثير من تفسير قصص القرآن واخباره (نيل الابتهاج ص 322) كما أشار الى ام هانيء العبدوسية التي قال عنها ابن غازي انها اخر فقهائهم (نيل الابتهاج ص 382)

وقد تعرض صاحب فهرس الفهارس الى مشيخة النسوان (ج2ص71) فراجعها

وهنالك عالمات أخريات منهن العالمة آمة اللطيف لها تصانيف (كتاب الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة 927 (ص 112) وفاطمة بنت عبد الله بن أبي بكر ابن زيدة سمع عنها المعجم الكبير ابو الفتوح مسعود بن محمد بن علي المصعبي الميمي (ميمة بلاد بأصبهان) (معجم البلدان ياقوت ج8ص228) وعائشة بنت الحسن بن ابراهيم الوركاني امرأة عالمة واعظة روت عن أبي عبد الله محمد بن اسحاق بن مندة روت عنها ام الرضى صوبنت احمد بن علي الحبال وغيرها ماتت سنة 460 (معجم البلدان ياقوت ج8ص417) وزينب بنت الكمال سمع منها

بدمشق الامام العلامة ابراهيم الصفاقسي وهى من أهل القرن الثامن (نيل الابتهاج لاحمد بابا ص II)

وكانت لمالك ابنة تحفظ علمه يعني الموطا وكانت تقف خلف الباب فاذا غلط القارىء نقرت الباب فيفطن فينظر مالك فيرد عليه (الديباج لابن فرحون ص 25)

وقدم نصيب مكة فأتى المسجد الحرام فجاءت ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء (معجم البلدان ياقوت ج 8 ص 39)

ولابن وداعة الرندى تأليف جمع فيه أربعين حديثا عن أربعين امرأة من الصحابة (الديباج لابن فرحون ص 58)

وقد أحصى من ترجم للحافظ السيوطى عدد شيوخه من النساء فبلغن اثنتى عشرة شيخة

ولابى حيان النحوى كتاب فى ابنته نضار سماه « النضار فى المسلاة عن نضار » وذكر ابو حيان أنها خرجت جزءا لنفسها وانها تعرب جيدا وكان يقول دائما ليت أخاها كان مثلها توفيت عام 730 فى حياة والدها (النفح ج I ص 6I3)

وللحافظ ابن حجر « المشيخة الباسلة للقبابي وفاطمة » والقبابي هو المسند عبد الرحمن ابن عمر اللخمى المصرى المقدسي وفاطمة هي المسندة المعمرة بنت الشيخ صلاح الدين ابن ابى الفتح المقدسيوجمعهما لاشتراكهما فى المشائخ (فهرس الفهارس ج 2 ص 59)

وكانت بالاندلس شاعرة من اليهود اسمها قسمونة بنت اسماعيل اليهودى وكان ابوها شاعرا واعتنى بتاديبها ربما صنع من الموشحة قسما فأتمتها هى بقسم اخر (النفح ج 2 ص 950)

ولما تكلم الشيخ فالح الظاهرى فى صحائف العامل على امامة المرأة ذكر أنه لو حضرت قريش الطبرية أو عائشة المقدسية أو كريمة المروزية وهن من النسوة المسندات اصلى وراءهن غير مرتاب ولا متشكك (ص I3 منه و ص 37 من أنجح المساعى له أيضا راجع فهرس الفهارس ج 2 ص 297)

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لامة اخرى ان تحظى بها فى مختلف الاعصار والامصار وقد قال عروة فى عائشة الصديقية : « ما جالست أحدا قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا بطب من عائشة » وقد وفدت الصحابية ام الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك واخذ الامام الشافعى الحديث عن السيدة نفيسة وضمته حلقتها فى القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته وحكى أبن خلكان



عروس حضرية

(ج 2 صI25) عن نفيسة هذه أنها كانت تلقى محاضرات يجلس للانصات اليها مشاهير العلماء وكانت عائشة الحنبلية احدى استاذات ابن حجر العسقلانى فى الحديث وقد تتلمذ بن حجر لزينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثة الفقيهة وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالبا للحديث كما تتلمذ ابن حجر ايضا لزينب بنت عثمان بن محمد التى كانت لها اليد الطولى فى علوم السنة ولها رسائل فى الفقه والحديث استند عليها كثير من العلماء وفى نفس العصر كانت فاطمة بنت المهدى زوجة لاحد العلماء وكان زوجها يرجع اليها فيما يشكل عليه فاذا ضايقه الطلبة استشارها وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد وأخذت هى عن الزمخشرى صاحب الكشاف وذكر ابن العماد الحنبلى فى شذراته عن أم الخير وتخصصها فى علم الحديث « ان أهل الارض نزلوا درجة فى العلم بموتها » وقد تتلمذ على عنيدة خمسمائة رجل وامرأة (المجلة الاسيوية سنة I930 ص 50) وقرأ الخطيب البغدادى صحيح البخارى على كريمة بنت احمد المروزى التى أسهمت بنصيب كبير فى تكوينه (ياقوت ج I ص 247 — صلة ابن بشكوال ج I ص I33) وهى حافظة من رواة البخارى (كامل ابن الاثير ج I0 ص 26) وقد حدثت رقية حفيدة ابن مزرع بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس المزى وألقت محاضرات فى المدينة وهى من مشاهير المحدثين وأخذت ست الوزراء البخارى ومسند الشافعى عن الزبيدى وذكر الصفدى أنها كانت محدثة عصرها وروى عنها مشاهير العلماء وقد برعت عائشة بنت على الدمشقية فى النحو والصرف والبيان والعروض والحديث وفتحت حلقة للتدريس وكانت عائشة المقدسية (من حفدة ابن قدامة المقدسى) سيدة المحدثين بدمشق سمعت البخارى على الحجار وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتبا عديدة وانفردت فى ءاخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة فى تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم وقد فاقت العروضية مولاة أبى المطرف بن غلبون هذا الاخير فى النحو واللغة والعروض وكانت تحفظ كامل المبرد ونوادر القالى وتشرحهما وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقى من المحدثات أجازها معظم علماء القرن السابع فى الشام والعراق والحجاز وفارس والفقيهةفاطمة السمرقندية زوجة علاء الدين القاشانى ألفت المؤلفات العديدة فى الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء وبلغت شهدة الدينورية بين علماء القرن الثانى عشر منزلة فى اسناد الحديث لم يبلغها أحد حتى لقبت بمسندة العراق ولها رسائل عديدة فى الحديث والفقه والتوحيد ولبنى الاندلسية العالة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم .

وقد تولت عالة زمانها فاطمة بنت قمريزان المتوفاة عام 966 مشيخة مدرسة الزجاجية ومدرسة العادلية وانتهت اليها الرياسة بحلب

أما الشواعر والاديبات والكاتبات اللواتى نبغن فى الاسلام فهن كثيرات جدا منهن حسب حروف الهجاء أسماء العامرية التى مدحت عبد المومن ابن على فى قصيدة

طلبت منه رفع الضريبة عن دارها والحجز عن اموالها وأم العلاء الحجارية التى لها قصائد وموشحات ذكرها صاحب المغرب وأم الكرام ابنة المعتصم صاحب المرية صاحبة الموشحات وأمة العزيز الاندلسية التى ذكر جملة من شعرها ابن دحية فى المطرب من اشعار المغرب وبثينة ابنة المعتمد وتقية ابنة ابى الفرج ذكرها الحافظ السلفى فى تعليقه واخذت عنه العلم بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنة عن طول باع المرأة فى كل ذلك وحفصة بنت حمدون الاندلسية وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب والشاعرة الشلبية التى كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتى وجهت الى يعقوب المنصور بقصيدة تتظلم فيها من ولاة شلب وعائشة القرطبية التى كانت تمدح الملوك وترتجل الشعر ارتجالا وروى ابن حيان انها اعقل بنات عصرها وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التى نظمتها على منوال تقى الدين بن حجة والتى درست فى الشام ومصر واجاز لها العلماء بالافتاء والتدريس ولها مؤلفات فى الادب والفقه وديوان شعر وكانت تكاتب الادباء والحكام وتستفتى فى المشاكل اللغوية والفقهية والادارية وتجتمع بالملوك فتجدمنهم اذانا مصيغة. وعائشة التيمورية وعلية بنت المهدى أخت الرشيد لها ديوان شعر وعمرة ابنة الخنساء والشاعرة الغسانية من شواعر الاندلس الموصوفات فى المائة الرابعة وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبانة زوجة الامين بن هرون الرشيد وليلى الاخيلية ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفى الشاعرة التى كانت تناضل الشعراء وتجادل الادباء وتفوق البرعاء وكانت زوجة الفرزدق أديبة نقادة يحتكم اليها شعراء العصر كما كانت مريم بنت ابى يعقوب الانصارى تعلم النساء الادب .

ولا يخلو كتاب من كتب التراجم والأدب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية فى مختلف الميادين فهنالك مصنفات فى النساء المؤلفات فى الاسلام وهنالك بلاغة النساء وهنالك الاماء الشاعرات وغير ذلك

وقد ساق كوستاف لوبون فى حضارة العرب جملة من هؤلاء من بينهن فاطمة التى كانت تنسخ للحكم الثانى والتى أعجب العلماء برسائلها فى الفنون والعلوم وخديجة الشاعرة ومريم التى كانت تعلم بنات الأسر الراقية فى اشبيلية العلم والشعر فتخرجت فى مدرستها نساء بارعات وراضية نابغة عصرها فى القريض والقصص الرائعة والتى جالت فى الشرق حيث كانت محط هتاف العلماء فى كل مصر.

وورد فى « خلاصة الاثر » أن بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها (ج I ص 204)

ويذكرون من بين صالونات الأدب التى كانت مجمعا لكبار المفكرين مجلس سكينة فى الحجاز ومجلس علية بنت المهدى ومجلس الفضل فى بغداد ونزهون فى غرناطة وولادة بنت المستكفى وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم والأدب التى شاركت

فيها المرأة بحضوره فى القرن السادس

وهكذا انفسح مجال العلم أمام المرأة المسلمة فى مختلف الاعصار والأمصار وقد أثار القلقشندى صاحب صبح الأعشى مشكلة الثقافة النسوية فقال : « لم يرو أن أحدا من المتقدمين أنكر على النساء هذا الحق »

أما فى الميدان العسكرى فقد ذكر الطبرى ان النساء كن يجهزن الجيش فى حروب القادسية (ج 6 ص 317) وضربت صفية المثل الرفيع فى البطولة الاولى للمرأة المسلمة (ابن الاثير) وشهدت ام سليم والدة أنس ابن مالك المغازى كلها (أسد الغابة) وشاركت أم عمارة مع زوجها فى غزوة أحد وحرب اليمامة وأصيبت اثنتى عشرة اصابة فى غمرة المعارك وصاحت خولة فى جموع النساء بدمشق فأسقطن ثلاثين جنديا للعدو ونقل ادوار دجيبن فى تاريخه هذه الوقعة فقال : « كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديرا بالاجلال والتقدير اذ كانت المسلمات ماهرات فى ضرب السيف واستعمال الرماح ورمى السهام واستطعن بتلك الخلال ان يحافظن على عفافهن فى ظرف دقيق وموقف حرج » وفى موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية فى النساء فبرزن من خيامهن واقتلعن أعمدتها وحملن ما استطعن حمله من السلاح وأنزلن بالعدو هزيمة نكراء وذكر ابن الاثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم وتقدمت جورية أخت معاوية بفرقة من النساء وأخذت تناضل فى اليرموك حتى جرحت وفى يوم التعوير (اليرموك) كانت أسماء بنت أبى بكر تقاتل الى جانب زوجها الزبير بن العوام وبارزت غزالة الحجاج فلاذ بالفرار وكانت والدة أسامة وأخته تحاربان فى الحروب الصليبية وفى الهند قتنت رضية سلطانة الاسد بضربة من سيفها البتار وكانت تتخذ زينتها من الاسلحة والدروع وفى احدى الغزوات فنشر النساء خمرهن وجعلنها رايات وزحفن نحو العدو حتى ظن المشركون أنها نجدة وانهزموا (كامل ابن الاثير ج 2 ص 207) وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الادب والفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبى وقاص وخاضت معه المعامع وحضرت معركة الحرة ، وكانت خولة الكندية تفوق الرجال فروسية وبسالة وحضرت مزروعة الحميرية فتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد —

وفى القرن الاخير أخذ نساء مصر العساكر الفرنسية الى دورهن وقتلنهم ورمينهم فى الآبار (رسالة نقولا الترك ص 111)

أما فى الموسيقى والغناء فهنالك المآت ممن كان لهن الباع الطويل والبراعة الخارقة وقد ذكر معبد عن جميلة الخزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنين وكان يتحاكم اليها أهل الفن فى مكة والمدينة والبصرة وتعتبر عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز والفت الحانا غريبة وفتنت أهل المدينة رجالا ونساء —

ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الامصار الاسلامية الى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الاوربية ولكن مؤلف حضارة العرب الذي صنف كتابه عام 1880 أكد « أن حالة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة اخواتهن في أوربة » وأنه اذا كان هنالك انخفاض في مستواهن فقد حدث « خلافا للقرآن لا بسبب القرآن » وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعورا بمركزها الممتاز الذي خوله اياها الاسلام الذي ضرب المثل السامي فيه نساء كن رمز النبوغ والطهر والعفاف ازيد من ثلاثة عشر قرنا .

عالمات المغرب وأديباته في مختلف العصور

لعبت المرأة المغربية دورا بارزا في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ واذا لم يكن هذا الدور ناصعا في كثير من الاحيان فانه لم يكن كذلك باهتا اذا لاحظنا ان الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملا اقتصاديا فكانت المرأة ربة البيت وراعيته والمشرفة على الحقل والسوائم في البادية والصانعة الماهرة في الحضر والوبر وللمرأة حقوق اقتصادية اكثر مما للرجل لان الاسلام يخولها حق الانفاق في البر من مال زوجها بينما يحظر على هذا التصرف في مال زوجته بدون اذنها وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومثار حبه الا في النادر بل ان بعض النساء اظهرن براعة ادارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لازواجهن الامراء والرؤساء وساهمت المرأة كذلك بحظ وافر في الاسعاف ورصد الاوقاف للمعوزين واقامة المعاهد ويكفي ان تعلم ان جامع القرويين انما اسسته فاطمة ام البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام 245 هـ بينما اقامت اختها مريم جامع الاندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالى القرن الرابع الهجري وصار بعد ذلك اكبر فروعها

وقد نبغت في العهد الادريسي الاميرة الحسنى بنت سليمان النجاعي زوجة المولى ادريس الازهر الذي كان لا يفعل شيئا الا بموافقتها وكانت اليها المشورة في دولته (الدرر السنية ص 8) وقد اشار محمد الكانوني في مخطوط له حول « شهيرات المغرب » الى بعض من نبغ من النساء فذكر عاتكة بنت الامير علي بن عمر بن ادريس زوجة الامير يحى ابن يحيى بن محمد التي كان لها أثر في مصير السياسة المغربية وخروج الدولة من بني محمد بن ادريس الى بني عمر بن ادريس وكان الناس قد قاموا على زوجها الذي مات بفاس غما فاستنجدت هي بوالدها علي بن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرهما من الريف الغربي فجيش الجيوش واخمد الثورة واسترجع فاسا عام 281 هـ وقد ذكر صاحب المعجب (ص 41) ان في دولة الحموديين الادارسة لم يثبت

محمد بن ادريس الا بفضل رباطة جأش والدته التي كانت تقوى منته وتشرف على الحرب بنفسها ».

وقد أشاروا الى ام الحسن بنت سليمان بن اصبغ المكناسي تلميذة بقي بن مخلد كانت تنفردبه كل يوم جمعة لاخذ العلم في داره (الذيل والتكملة)

وفي عهد المرابطين اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف ابن تاشفين احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ولها بنى ابن تاشفين مدينة مراكش كما في « الاستبصار » وكذلك تميمة بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة النادرة ، جمعت ثروة اشرفت على ادارتها بنفسها وكان لها كاتب تحاسبه وهي تكنى أم طلحة وكانت مشهورة بالادب والكرم ذكرها ابن الابار في ءاخر كتابه في النساء وابن القاضي في (الجذوة ص 106) وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دورا في سياسة الدولة وكان الامير يدير كل الشؤون العمومية باشارتها وكانت حواء بنت ابراهيم المسوفي تقرأ وتحاضر بالادب كما كانت اختها زينب تحفظ جملة وافرة من الشعر وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها

وقد قامت فانو بنت عمر بن بنتيان بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللمتونية فهي من البطلات التي يحق للمغرب ان يخلد ذكراهن فقد استماتت في المدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش وناضلت نصف يوم قبل ان يستسلم اسحق ابن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام 545 ه وقد أثار استبسال هذه العذراء اللمتونية اعجاب الموحدين في ذلك العصر

وفي أيام الموحدين درست أم هانئ بنت القاضي عبد الحق بنعطية على والدها واخذ الناس عنها العلوم وهي والدة ابى جعفر احمد الاديب طبيب المنصور ولها تاليف في الوعظ والارشاد (ابن عبد الملك) وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المومن علم الاصول على أبي عبد الله ابن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة وذكر ابن عبد الملك انها ولدت بالاندلس وتزوجها ابن عمها زيد ابن حفص وكانت عالمة صائبة الرأى معروفة الشفوف على نساء زمانها (الذيل والتكملة)

وحفصة الركونية كانت استاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت اديبة زمانها (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص 165) بل استاذة عصرها (الاحاطة) وهناك ايضا ام عمرو بنت ابى مروان ابن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوى نساء القصر واطفاله وكانت تستفتى في الطب ولها بنت هي ابنة ابى العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة وورقاء بنت ينتان الفاسية الاديبة الشاعرة وهي طليطلية سكنت مدينة فاس وتوفيت عام 540 (الجذوة ص 335)

وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بغرناطة وامة العزيز المسبتية

لها اشعار رائقة وام العز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن ابيها صحيح البخارى وزينب القرقولية سمعت على أبيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغسانى نزيل مراكش واغمات استاذة فى القراءات السبع (تكملة ابن عبد الملك) وام المجد مريم بنت ابى الحسن الغافقى الذى فتح مدرسة للغرباء فى سبتة وحبس عليهم اول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجوز المسندة محمد بن القاسم السبتى فى «اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سنى الآثار» (ص 5) وخيرونة الفاسية التى كانت تحضر مجلس عثمان السلالجى أمام أهل فاس فى الاصول ولها الف العقيدة البرهانية على طريقة الاشعرى .

ويقال بأن بنت المهدى بن تومرت حاربته يوما كاملا بعد رجوعه الى تينمل من محاربة اللمتونيين لتبرهن له أنه ترك خليفة جديرا به فسر بذلك (رحلة الوافد فى اخبار هجرة الوالد للفقيه السيد محمد بن الحاج ابراهيم الزرهونى من تاسفت بوادى نفيس) وهى اسطورة شائعة وان كان المهدى لم يعقب حسب روايات أخرى ونبغت فى عهد المرينيين فاطمة وأم هانى بنتا محمد بن موسى العبدوسى وهما فقيهتان وأم البنين الفقيهة جدة الشيخ زروق وسارة الحلبية الفاسية وهى استاذة شاعرة من طبقة عالية فى الادب توفيت بفاس حيث اجازت عبد الله بن سلمون ولها قصيدة اجابت بها ابن رشيد السبتى ومدحت فى أخرى مالك بن المرحل ومن النساء البارعات صفية العزفية السبتية وهى من فضليات نساء عصرها فى العلم والصيانة وصبح جارية الحكيم الجزنائى فيلسوف المغرب وطبيب وكاتب ديوان الانشاء فى دولة ابى الحسن المرينى لقنها العربية فنظمت الشعر (جذوة الاقتباس ص 58)

وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمى السبتى اجاز لها ابن رشيد عام وفاته 721 هـ « ازهار الرياض » وامة الرحيم السبتية اجاز لها جماعة وام قاسم زهرة جدة الامام حسن المرادى الآسفى المعروفة بالشيخة

ولم تكن المرأة المغربية فى هذه العصور تختلف عن المرأة العربية فى شجاعتها ورباطة جاشها لا سيما فى الصحراء او الجبال التى انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون « وكانت قبائل بنى مرين تخرج بجميع العيالات فى الحروب كما وقع فى الغزاة التى تقابل فيها ابو يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان فى تلمسان حيث برزت الجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجوارى المولدات تقودها الرجال فى احسن زى وأتم جمال (الذخيرة السنية ص 146)

ولما قامت عامة مدينة فاس على السلطان عبد الحق المرينى اقاموا محمد بن على الجوطى اماما فبقى الى سنة 875 حيث عزله أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى وبقيت فاس فى يد أخت ابن الحجاج الزهراء المدعوة زهور مع قائده الشكيرى الى أن تولى الامير محمد المدعو الشيخ بن ابى زكرياء الوطاسى (الجذوة ص 131)

وفى عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسـع فـى الميـدان السياسى فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس (النصف الثاني لعام 1956 ص 222) وولدت هذه السيدة عام 900 هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر انها درست اللغة الاسبانية لان والدتها لالة زهرة اندلسية تزوجت على بن راشد قائد شفشاون عندما كان يجاهد وهو شاب فى العدوة وبذلك كان للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسى الذى لعبته فقد تزوجت على المنضرى وانتقلت معه الى تيطاون الى حيث وجدت وسطا اندلسيا مثقفا رقيق الحاشية كالذى ربيت فيه وكان زوجها فى نضال مستمر مع البرتغاليين فى طنجة واصيلا وكذلك فى سبتة مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التى كانت تحاك فى ذلك العصر ضد المغرب وقـد وهـم كاتب المقال حيث اعتقد ان الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو خلاف ما يفهم من كلام ابن عسكر فى (دوحة الناشر طبعة فاس الحجرية ص 19) وقد نبه على هذا الغلط صديقنا الاستاذ محمد داود فى « مختصر تاريخ تطوان » (ص 31)

وعندما مات المنضرى تزوجت مولاى على بن عمر الحسنى وولدت بنتا زوجتها لاحد حفدة المنضرى الذى كان والده قائدا فى تطوان والذى عرفـت كيـف تنحيـه لتجعل صهرها الشاب فى منصبه وتستبد هى نفسها بالقيادة المطلقة فى تطوان وبالجهاد ضد المسيحيين وكان لها بواخر تقرصن فى الشواطىء الاسبانية كما كانت لها علائق طيبة مع الاتراك وسلطان فاس وفى عام 1541 تزوجـت السيدة الحـرة مـولاى احمد الوطاسى الذى تركها فى تطوان وكلفها بالاتصال بالبرتغاليين وكان لها تشاحن مـع والى سبتة التى كانت تطمح هى الى احتلالها بينما كان الوالى البرتغالى يطمع فى تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب .

اما تمدين السعديين فقد تم على يد العريفة بنت بنجو التى لقنتهم مظاهر الحضارة الملوكية لا سيما داخل القصور والبيوتات (تاريخ الدولة السعدية ص 25) وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبى عناية باصلاح السبل وعمارتها وتشييـد الخانات بالامكنة الخالية وبناء القناطر (أصلحت جسر وادي أم الربيع عام الف) وتجهيز اليتامى وتزويج الارامل وهى التى اسست مسجد باب دكالة بمراكش عام 965 واوقفت عليه نحو سبعين حانوتا وغيرها وأقامت بازائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة وذخائر كتبت على بعضها بخط يدها والاميرة سحابة الرحمانية ام عبد الملـك الغـازى التى لعبت دورا كبيرا فى حمل الخليفة التركى على اصدار امره لوالى الجزائـر بمساعـدة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام 983 وام كلثوم بنت الشيخ بناصر قرات الوغليسية فى الفقه والبردة في السيرة والنساء الناصريات فى درعة متعلمات على وجه العمـوم ولا نطيل بسرد اسمائهن .

وفى العهد العلوى طار صيت الاميرة خناثة بنت بكار المغافرية زوج المولى اسماعيل

فقد ذكر صاحب الجيش (ص 105) انها حصلت العلوم وقد كتب على هامش الاصابة لابن حجر وكانت تصدر عنها ظهائر ومراسيم فى بعض الشؤون القبائلية فى عهدى مولاى اسماعيل وولده عبد الله وكان زوجها يستشيرها فى بعض الشؤون وقد قال عنها الرحالة الاسحاقى انها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير

ومن النساء العالمات عائشة بنت بونافع الفاسية والدة عبد المجيد الزبادى كانت تحضر مجالسه العلمية والزهراء بنت محمد الشرقى زوجة اليوسى كانت شيخة فقيهة اخذت عن زوجها بالاجازة جميع مروياته واخذ عنها ابن اخيها اللغوى محمد بن الطيب الشرقى وخديجة بنت عبد الله الحوات كانت تعلم النساء المنقطعات وسكينة بنت السلطان مولاى عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين والفقيهة فاطمة زويتن وام قاسم الحسناوية ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الاديبة الفقيهة العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة وأسرار الحروف والاسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون – كما يقول الكانونى وكانت فى مجالس التفسير تتوخى اسباب النزول وعلوم القرآن وانساب العرب والتاريخ توفيت اوائل القرن الرابع عشر وصفية بنت المختار العالمة فى التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهى شنكيطية ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمى التى كانت راوية الاشعار ومشاركة فى العلوم واختها ربيعة التى كانت لها عارضة فى الادب والشعر نقادة للشعراء وهند زوجة ماء العينين المشاركة فى مختلف الفنون وخديجة بنت الامام محمد العتيق وكانت تبذ فى العلم عالمات عصرها بل وكثيرا من علمائه وقد نبغت فى الشعر فتاة فى شنكيط اسمها مريم كما فى « الوسيط فى أدباء شنكيط » (ص 337)

وفى اوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران تدرس المنطق فى جامع الاندلس من وراء حجاب وكان لها ضلع فى مختلف الفنون واذا صدقنا رواية أحد طلبة القرويين الذين روى عنهم موليراس حوالى 1895 نلاحظ ان غالب نساء فاس مثلا كن قارئات لهن المام بالادب خصوصا قصائد الامام الغرناطى وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر

ولا نكاد نحصى الاستاذات او النسوة المثقفات اللواتى كن يعشن فى حواضر المغرب وبواديه

وقد أشار صديقنا الاستاذ محمد داود فى « مختصر تاريخ تطوان » (ج 2 ص 291) الى لا لا غيلانة فوصفها بالفقيهة الصالحة العالمة العاملة الزاهدة واسمها امنة ابنة الفقيه الصالح سيدى محمد غيلان وقد « علمها والدها القرآن والعربية والفقه والحديث فكانت عالمة نساء البلد صالحتهن تعلمهن أمور دينهن » توفيت عام 1189 هـ

وقد لاحظ كابريال شارمس فى كتابه « سفارة الى المغرب » ان البطلة البربرية

التي كانت تحكم قبيلة ءايت زدك الجبلية والتي تسمى رقية بنت حديدو كانت تتقن الفروسية رغم بلوغها الستين سنة وقد هاجمت مرة تشكيلة فرنسية يقودها الجنرال ازمون الوالي العام للجزائر بالنيابة عن الجنرال شانزي (ص 215)

ومن الشيخات اللواتي تلمذ لهن علماء مغاربة :

الشيخة الاستاذة الاديبة الشاعرة سارة بنت احمد بن عثمان بن الصلاح الحلبيةلقيها عبد الله بن علي ابن سلمون الكناني بفاس فأجازته والبسته خرقة التصوف وأنشدته قصيدة أجابت بها ابن رشيد السبتي وقد اثبت ابن القاضي في الجذوة ابياتا منها ومدحت امراء الاندلس ورؤساء سبتة وشعراءها (جذوة الاقتباس ص 245 و 324)

وشهدة بنت احمد بن الفرج الابدية ذكرها صاحب الجذوة في شيوخ محمد بن عبد الرحمن التجيبي الاشبيلي وهو من الواردين على المغرب .

وقد سمع أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشارقي البلنسي نزيل فاس من كريمة المروزية (الجذوة ص 68) .

ومن شيوخ ابن بطوطة في بغداد الشيخة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل علي بن علي بن ابي البدر (الرحلة)

وكان النساء المغربيات يخرجن لاستقبال العلماء ويحضرن جنائز الائمة الكبار

ولما قدم سيدي ابو جيدة من المشرق خرج أهل فاس كلهم للقائه الا من شذ فكان الرجال في ناحية والنساء في ناحية أخرى فسأل عن النساء فقيل له خرجن فرحا واجلالا لك (السلوة ج 3 ص 90)

كما كان النساء يحضرن دروس العلوم كدروس شيخ الاسلام محمد الطيب ابن كيران وكن ينتفعن به لسلاسة عبارته وفصاحة لسانه (السلوة ج 3 ص 2)

وذكروا أن شيخ الاسلام وحافظ المغرب عبد العزيز بن ابي عمران العبدوسي الفاسي كان الناس يتسابقون الى المواضع في مجلس درسه قبل الصبح رجالا ونساء وفي خارج المسجد اكثر (نيل الابتهاج لاحمد بابا السوداني ص 158)

وقد حكى موليبيراس في كتابه « المغرب المجهول » أن للمرأة في الريف نفوذا كبيرا على الرجال فهي الآمرة الناهية كما هو الحال في كثير من الاوساط الاسلامية سواء في المغرب أم في تونس والجزائر وقد وهم الاوربيون الذين يظنون ان المرأة المسلمة تعيش تحت رحمة زوجها (ص 133 ـ 134)

وفي بعض القبائل الريفية مثل قبيلة بني بشير ما زال النساء يتكلمن بتمازيغت



اسرائيلية بالزى البدوى

في حين أن الرجال يستعملون العربية لقربهم من جبالة وتمتاز المرأة بالشجاعة وهي نساجة ماهرة وتشتغل بالاعمال الفلاحية كما تتسم بطهرها البالغ ولعل الرجال أقل بسالة من النساء في هذه الجهة

والمرأة سافرة في معظم الريف أما في جبالة التي تتكلم بالعربية ـ باستثناء بعض المناطق الغمارية ـ فان المرأة تتنقب مستعملة الحمار التلمساني في فشتالة وبني ورياغل وسلاس وجاية وبني سميح والويل كل الويل لمن خاطب امرأة في الطريق ويعذب الزاني في بني زروال حيث يطوف في الازقة وتفقأ عيناه بحديدة محماة أما الزانية المحصنة فانها تحمل بعد التطواف الى اكبر سوق في القبيلة بحيث تلفظ نفسها الاخير تحت السياط واذا استمر تعذيبها الى الشفق أطلقت رصاصة في رأسها لجعل حد لعذابها ويجرى نفس العذاب على سارق السوائم التي تسرح بدون راع في الجبال

والمرأة الريفية جميلة ولود قد أحصى لبعضهن خمسة عشر من الاطفال ولا يحب الريفيون النسوة العاقرات فاذا طلقت المرأة لعقمها لم يعدلها أمل في الزواج ومع ذلك فالاعراض مصونة في الريف كل الصيانة ويذكرون أن لبني ورياغل غيرة فائقة على نسائهم وانهم لا يسمحون لاجنبي أن يوجد حتى عن طريق الصدفة بالقرب من نسائهم فاذا رأى الرجل امرأة فعليه أن يبتعد عنها دون أن يتتبعها النظر والا تعرض لنيران بنادق اقاربها وكذلك الامر في القليعة وهي جانب من صحراء الريف «حيث لا يتمازج مع عرض النساء » والمرأة الورياغلية رائعة الجمال وكذلك الرجال والمرأة هي المشرفة على الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ويعمل تحت امرتها مرتزقة أجانب .

وفي مثيوة تمتاز المرأة بحسنها الرائع وهي تتزوج في الغالب بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وقد أكد موليبيراس الذى الف كتابه عام 1895 أن الصداق يبلغ أحيانا خمسة «الاف فرنك .

وكانت توجد في الريف أسواق مخصصة للنساء لا يشاركهن فيها رجال كالسوق الذي ينعقد في سيدي مالك في قبيلة بقوية وكسوق مرنيسة

ولكن توجد فخذة في الريف هي بني عروس تزاول فيها المرأة الرقص ولا تهتم هذه القبيلة كلها الا بالموسيقى حيث لا تسمع سوى نغمات المزمار ورنات الاناشيد

وفي تمسمان تجرى عادة « الكرنفال » — وهي عادة لا تعرف في باقي ربوع المغرب وتشارك المرأة في تماثيلها الشعبية التي لا يخلو بعضها من اسفاف (موليبيراس، ص 107)

وفي بني توزين تضرب الامثال بجمال المرأة التي هي في نفس الوقت شجاعة تشارك الرجل في المعارك وتنجز الاشغال الشاقة بنفسها وتحصد وتحطب وتسقي وتفلح الحقل وهي تلبس الحايك وتغطى سيقانها بجلد كالجورب وهي عفيفة ولود تقوم

وفي الدسول (لا التسول التي توجد بناحية تازة) تساعد النسوة المتحجبات ازواجهن في نسج الملبوسات وصنع القفاف والقبعات وحصر الحلفة بينما يحتكر الرجل صنع البارود لغلبة الروح العسكرية في الجبل ومن الظواهر الملحوظة في جبالة (وسوس) عدم نياحة النساء على الموتى الذين يشيعون عادة بالزغاريد وهذا التجلد الصامت عند المرأة الجبلية ينم عن قوة نفسية وعن رباطة جأش وتبسط الموائد في مثل هذه الحالة طوال أربعين يوما وليلة تذوب خلالها تركة المرحوم

وفي بني مسارة كذلك (حول وزان) كانت الكتاتيب دائما تتوافر حيث يختلط الذكور والاناث وفي الساعة الرابعة من كل يوم تنصرف كتائب من الرجال (بين 50 و 150 شخصا) لتتدرب في كل قرية على لعب الكرة والرماية والمسايفة وتوجد في كل مركز قروي زاوية للرماة وهي عبارة عن دار للسلاح فيها بنادق الجماعة وبارودها وتجرى التمارين كل يوم خارج القرية تحت امرة كبير الزاوية الذي هو القائد الاعلى للرماة المتراوحة أعمارهم بين 15 و 70 سنة وعند عودة هؤلاء في المساء تسمع رنات الطلقات النارية متجاوبة مع زغاريد النساء اللواتي ينتظرن أزواجهن وأولادهن على عتبات الدور !

وهذه الزوايا العسكرية كانت منتشرة من طنجة الى وادي درعة (وبالاخص السوس والحوز)

ومن خواص الزواج في جبالة أن العروس تقضي أسبوعا كاملا متنقلة بين دور أقاربها صحبة ثلة من صواحبها في ثياب بيض متقنعة من الرأس الى الاخمص وخلال هذه الايام تقام حفلات ومآدب في كل مكان حلت فيه وفي اليوم السابع تنتظر وصول الوفد الذي يزفها الى الزوج وسط موجة من الطلقات النارية

وطوال اسبوع لا يختلي الزوجان الا نحوا من ساعة في كل ليل ثم ينعطف الزوج نحو اصدقائه ليقضي بقية لياليه في السمر وتعود الى الزوجة صديقاتها

وتجرى حفلات الرجال والنساء في جناحين منفصلين من المدار حيث تقضي العادة بالموت المحقق لمن تسول له نفسه الاقتراب من ملاعب النساء

ومن مهام المرأة هنا تربية دود القز وصنع الحرير واصداره الى كل من مراكش وفاس

وفي القبائل المحاذية لتطاون تلبس المرأة المتزوجة قبعة واسعة مصنوعة من سعف الدوم وكذلك الفتاة عند ما تبلغ العشرين من عمرها ولو كانت غير متزوجة وتدير النساء القاطنات في قمم جبالة « الترابق » الجلدية على سيقانهن لاتقاء لذغات الافاعي

ومن الغرائب في جبالة أن الحامل تضع وهي واقفة وتنظم الحفلات الصارخة اذا

كان المولود ذكرا أما اذا كان بنتا فانه لا عقيقة ولا ضحية ولا زغاريد ولا طلقات نارية وهي عادة غريبة متغلغلة في الجاهلية الاولى

وفي قبيلة بني احمد السرق حيث تتوافر الكتاتيب القرآنية ويتوارد الطلبة من طرابلس والجزائر وتونس وكورارة (لانها قبيلة مشهورة بالبركة في العلم) يتعاطى معظم السكان — رجالا ونساء — العلم كما يساهم الجنسان في صناعة الصابون والحصر والزرابي والمخالي والاطباق

ومن هذا العرض يتضح أن جبالة التي تعتبر مساحتها ضعف مساحة الريف وتحتوي على اثنتين وخمسين قبيلة في وسعها أن تجرد ثلاثمائة الف جندي لمحاربة الدخلاء الاوربيين كانت دائما مضطرة لان تترك للمرأة الاعمال الاقتصادية والمنزلية لينصرف الرجل بكليته الى الفروسية والرماية استعدادا للطوارىء .

وهو يعطينا صورة عن اسهام المرأة البدوية في الحركة الفكرية النسوية ومزاحمتها للمرأة الفاسية التي ذكر السخاوي في « الضوء اللامع » عشرات من الامثلة عنها

في الاطلس والصحراء

ولعل من العسير — رغم وحدة الاعراف على وجه العموم في مجموع افريقيا الشمالية — استقراء جزئيات الاعراف البربرية لقلة الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها تلك القلة الراجعة لكون اللهجات البربرية لا تكتب اللهم الا عند التوارك حيث توجد حروف تيفيناغ ويلاحظ أن النساء يعرفن وحدهن الكتابة عند هؤلاء البربر وهن قلائل على أن هذه الوسائل لم تستعمل لنقل نصوص العرب أبا عن جد وحتى في القبائل البربرية التي تستعمل اللغة العربية لم يسجل سوى اليسير من الاعراف (باستثناء ناحية مزاب)

ويتصل جانب كبير من العرف بالمرأة التي يحظر عليها مثلا — مهما يكن سنها ومستواها الاجتماعي — أن تكون عضوا في الجماعة حتى ولو سمح لها بأن تكون على رأس عائلة بدلا من الرجل وليس معنى هذا أنه ليس لها حق اسماع صوتها واقناع الجماعة بمشاطرتها الرأي فذلك كثيرا ما يقع لاسيما اذا كان للمرأة تأثير في المجتمع وربما ناب عن المرأة في ابلاغ رأيها الى مجلس الجماعة أحد أعيان القبيلة.

وهنالك ما يسمى عند البربر بالمزرك وهو شبيه بالاجارة عند العرب أي الرابطة الناتجة عن اتفاق حاصل بين فرد من الجماعة وفرد اخر أجنبي عنها فالحامي أو المجير يسمى الزطاط والمجار أمزدور وهذه الوثيقة تفرض على مجموع القبيلة حماية الاجنبي بل ان المسؤولية الجماعية تقوى اذا كان الشخص المجير امرأة

والمرأة البربرية محرومة من الارث وحتى فى المناطق التى يجرى فيها العمل بالفقه المالكى تقع تحبيسات أو أنواع خاصة من الشفعة للحيلولة دون انتقال حقوق المرأة العينية الى الرجل الاجنبي فحرمان المرأة من الارث لا يقصد منه معارضة حكم الاسلام وانما هو ناتج عن الخوف من تسرب الاجانب الى الملك العائلي

أما الزواج فانه يصطبغ سواء عند البربر أم عند العرب المسلمين بصبغة مقدسة ولا ينطوي على اية فكرة للتملك كما يزعمه الاجانب الذين ياخذون على الاسلام احتقاره للمرأة واعتبارها ملكا سائغا للرجل وقد اشاد سوردون بنفوذ المرأة فى المغرب عند الامازيغيين (المؤسسات والاعراف عند البربر ص 218) واذا استثنينا الارث وجدنا أن المرأة البربرية تتمتع بحقوق منها أن تكون ربة البيت وأن تتبنى أجنبيا وتلحقه بالقبيلة وان تحمي الاجانب ولها حق الفرار اذا لم ترض بزوجها مثلا فله هو حق الطلاق ولها هي حق الفرار وتقوم بدور الخطبة جماعة من ستة الى اثنى عشر فردا من أقرباء الزوج يكونون فى نفس الوقت شهودا فى العقد وتقدم هذه الجماعة قربانا الى الوالد فاذا ذاق منه بمحضرها يعد قبولا واذا رفض الاكل أو بادر بذبح كبش فان ذلك يعد منه رفضا للزواج أو تحفظا على الاقل وبالقبول تبتدىء عملية الاملاك « اسرورت » ويرسل الخطيب هدايا الى نساء خيمة زوجته ويطلب رأي الزوجة اذا كانت ثيبا فاذا كانت بكرا اكتفى نظريا برضى الوالد ولكن بما أن الزوجة تتمتع بحق الفرار اذا زوجت عن غير رضى منها فان اهلها يطلبون نظرها عمليا والمرأة البربرية سافرة اللهم الا فى بعض المقاطعات فى الشمال والجنوب حيث تتستر المرأة بيديها أو تستدبر الاجنبى اذا مر فى الطريق

وعند وفاة الزوج يمكن لورثته التعرض لزواج أرملته اذا كان الهالك قد سلم صداقا لوالد الزوجة ويسمى هذا الصداق « عتيق » ولهم أن يصروا على هذا التعرض الى أن يحصلوا من الزوج الجديد على نفس المبلغ ولا يعترف العرف بالزواج الواقع غلطا ولو أدى الى حمل لان فى ذلك اخلالا بمصالح الجماعة وتهديدا لوجودها السياسى والاجتماعي وحتى فى حالة الطلاق يتعرض الرجل فى زواج مطلقته الى ان يحصل من الزوج الثانى على نفس مبلغ « العتيق » وله أيضا ان يتعرض فى زواجها من اشخاص معلومين اذا ثبت لديه أنه كان لها بهم علائق أثيمة .

وهناك قبائل تجرى فيها زواجات جماعية أولا يدفع فيها عتيق ففي آيت يزة (ءايت حديدو) مثلا ينعقد موسم يستمر من 23 الى 25 شتنبر من كل سنة تحضره جماعات من الفتيات أو الارامل أو المطلقات (فى كل جماعة نحو سبع أو ثماني نسوة) لابسات اجمل حللهن فاذا وقع اختيار رجل على احداهن خاطبها فتجيب بالقبول أو تدير رأسها علامة النفي وكذلك الامر فى موسم تزروالت (سيدى احمد وموسى)

أما فى ءايت عيشة وبعض قبائل ازيلال فان الزوج لا يدفع العتيق بل العتيق ممنوع



رجل من زمور الشلح

فى ءايت شخمان (ءايت داوود) وانما يدفع الزوج وعائلته هدايا للزوجة ولغيرها وعلى هؤلاء ارجاعها للزوج عند انحلال العصمة بالطلاق أو الموت واذا زنت المرأة فعلى مشاركها فى الجريمة أن يؤدى الى الزوج - حتى ولو لم يكن قد دفع العتيق - مبلغا برسم الدية والا فسخ الزواج ولو بعد الدخول والمرأة الايم (تجالت ويقال هجالة فى حواضر المغرب) تتمتع بحرية كاملة بل يقال بان فى ءايت حديدو مثلاتتزوج الفتيات ويحصلن بالخلع على الطلاق ليصبحن ايامى وتجبر الأيم فى كثير من القبائل على التزوج باحد اخوة الهالك ولا يسمح لها بالتزوج بغيرهم الا اذا عدلوا عن الزواج بها ويحظر الزواج باشخاص يمارسون بعض المهن كالحدادة والبهلوانيين (الحلايقية) والباعة الجوالين والعبيد لعدم استقرارهم فى القبيلة وفى حالة الزواج بالاجنبي المقبول فى القبيلة يتم الاتفاق على عقدة للزواج والشغل معا

والبربرى لا يتزوج عمليا الا بامرأة واحدة لاسباب منها الفقر وتعذر العول والمرأة مساعدة لزوجها تشاطره حياته الشاقة والعسكرية وتساهم فى أعمال الحقل والهجرة حسب الفصول وعند شبوب الحرب تقوم المرأة بتموين المجاهدين بالطعام والعتاد حتى فى الصفوف الاولى للقتال وتحض المرأة الرجال على الصبر والمصابرة واذا فر مجاهد من ساحة العراك تسم النساء جلبابه بالحناء فيصبح مسخرة الجميع لان المرأة تفضل أن يموت الرجل عن شجاعة واستبسال كما هو الحال عند العرب

والمرأة المعتدة تلبس البياض وحذائين من لون ناصع ويعترف العرف للمرأة بحق فسخ الزوجية بالفرار عند أجنبي وذلك عند اضرار الزوج بها أو عدم انفاقه عليها والواقع أن الزوجة تفر عند ما تصبح حياتها الزوجية غير موافقة ولا يترتب عن هذا الفرار الطلاق البائن الا اذا تكرر الهروب ثلاث مرات فعند ذلك تعلن الجماعة الطلاق وعند غياب الزوج سنة كاملة يصبح من حق المرأة أن تطلب من الجماعة اعلان فسخ الزواج وعلى زوجها الجديد اداء ثلثي العتيق الى ورثة الغائب .

اما بسوس فان وضع المرأة لا يختلف عنه فى باقى النواحى البربرية عفافا ونشاطا واحتراما عند الرجل فالمرأة ربة البيت ترعاه وتتحمل جميع اعبائه الاقتصادية والاجتماعية

والحجاب غير موجود فعليا وانما هو فى الغالب حجاب بدوى لا يعدو ستارا من الحياء يجعل المرأة تتحاشى الرجل ما أمكنها أو تغطى وجهها بذيل ردائها عند مقابلة الرجل وتوجد كما فى الشمال أسواق خاصة بالنساء مثل أسواق حاحةوسهول شتوكة وهنالك أسواق تخصص فيها أجنحة للنساء لعدم اختلاط الجنسين والمرأة هى التى تتكفل بشراء وبيع بعض المواد كالصوف والحناء والفواكه والبيض وهى التى تسمد الحقل ويجتمع النساء لنقل الاسمدة فى قفاف على رؤوسهن ويكتفى الرجل بزوجة واحدة وتعيش العائلة فى منزل واحد مهما تشعبت بزواج افرادها وتسرى

روح النشاط من السوسيين الى نسائهم وقد ذكر البكرى فى مسالكه فى القرن الخامس « أن أهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب (ص 163 الجزء الخاص بالمغرب)

ووضع المرأة البربرية ليس واحدا فى جميع مناطق افريقيا الشمالية

فحالة المرأة الاباضية فى مزاب على خلافها فى الاطلس فالزوج لا يخرج زوجته خارج منطقة مزاب بل محظور عليه ان يدخل امرأة اجنبية الى هذه المنطقة وللمزوج أن يمنع زوجه من الخروج ولكن عليه ان يجالسها فى الدار ويسكنها فــى محل صالــح ولا يتزوج الرجل الا بواحدة لان فى وسع زوجته منعه حتى بالتسرى ولها عليه كسوة الصيف والشتاء والخمار والاحذية والمشط والكحل والحناء واذا حرمها من ثيــاب الشتاء مثلا وقع جلده وليس من حق الرجل أن يفرض على زوجته النسج أو العجن أو الطحن أو غسل الثياب ولكن على الزوجة اعداد طعام زوجها الشخصى ولو كانت لها مائة خادمة وليس للمرأة حق الفرار ولكن لها رفض بعض انواع الزواج أو اشتراط حق الطلاق فى العقد وهنالك عادة فى مزاب شبيهــة بما عند « القبائل » الجزائريــة وهى منع الطالق من الزواج لانها تظل على « رقبته » ويجبر على الانفاق عليها لهــذا يضطر غالبا الى رفع الحجر عنها وكان الصداق فى مزاب لا يعدو قبل الحرب الاخيرة 750 فرنكا للغنى والفقير

وعند المزابيين ما يسمى بالغسالات وعددهن خمس فى غردايــة مثلا حيث يتــم الوفاق على تأليف مجلس « حلقة الطلبة » وهن يتحكمن فى النساء ويفرضن عليهن نظاما عرفيا خاصا ويحرسن من غاب زوجها وهن فى الغالب قارئات كاتبات باللغة العربية يعقدن مؤتمرا سنويا عاما ويصدرن احكامهن فيه على النسوة المجرمات ويسهرن على الاعراف التقليدية

وللمرأة فى الاوراس حق الاتفاق مع من تريده زوجا لها ليختطفها وذلك بلفها فى برنسه ونقلها أمام الناس الى منزل والديه ويطبق هنا المذهب المالكى فى كثير من الامور التى تهم المرأة وعلى المرأة فى الاوراس نقل الاسمدة الى الحقل والفلح وتربية السوائم وغزل الصوف وصنع أوانى الخزف واعداد الجلد وتجفيف الفواكه والخضر وصنع القطران وجهل المرأة بالغزل يمكن أن يعتبر سببا فى الطلاق

وفى جزيرة جربة بتونس كان يحظر على النساء الخروج من الجزيرة كمــا يحظر على الرجل ادخال أجنبية اليها والجربيون اباضيون مثــل أهل مزاب وبرابرة جبــل نفوسة فى طرابلس الغرب وسكان جربة متدينون جدا ويوجد فى جزيرتهم 284 مسجدا علاوة على عدة قباب وأضرحة .

وعند التوارك (توارك لتركهم الاسلام مرارا او لانهم ينتمون لتاركــة احــدى

قبائل صنهاجة الملثمين) تتقن المرأة وحدها الكتابة غالبا وحظها في الميــراث مثــل حظ الرجل والعفاف قليل والولد ينسب الى أمه والمرأة تطلق زوجها وتزوج نفسها والرجل هو الذى يتلثم وتعزف المرأة على العود وتشتغل بالموسيقى

أما في شنجيط فان المرأة محترمة وقد ذكر صاحب الجأش الربيط (ص 37) أن المرأة سيدة البيت لامراقبة عليها من زوجها والرجل بمثابــة الضيف ولا تباشر الخدمة بنفسهــا « وتمتاز نساء الزوايا بالقراءة فهن يشاركن الرجل فــى التعليــم والاشتغال بالفنون مع الصيانة وعدم الابتذال واذا نزل بهن الاضياف في غيبة الرجل يحسنن اليه ضاربات المثل القائل بانه ان كان الاسد يقتل فاللبوة تقتــل كذلــك والاغلب فى شنجيط عدم الاحتجاب » اما نساء الزوايا فكثير منهن يحتجبن تدينا « ولباس المرأة بسيط تلتحف بثوب عريض طويل تشتمل ببعضــه كقميص وتجعــل الآخر فوق رأسها ثم تجعل طرفه امامها وترمى جانبه الاعلى فوق منكبيها وهذه هى الملحفة أو الملاءة العربية ولا تكون الا من الكتان الاسود وربما يأخذ بعضهن مرطا بدون اعتبار الصنف واللون وربما تجعل تحت الملحفة شعارا كالقميص ولباسهــن هــذا لا يتبدل كيفا ولا كما والصغيرة تستعمل اللباس كيفما اتفق ويعتنين بكل أصناف الزينة حليا وطيبا وخضابا ويرتبن استعمالها على سنين كل سن وما يناسبه ولهن مهارةعجيبةفى ضفر الرأس على حسب السنين واحسن الحلى خرز من الحجارة النفيسة مختلفة الالوان لا مثيل له بالبلدان الاخرى ويلبسن أساور منمقة بالفضة وتصنعمن شجر أسود اللون وهى تساوى أســاور الذهب والفضــة ولا يغنــى عنها النقــدان ان وجـــدت .

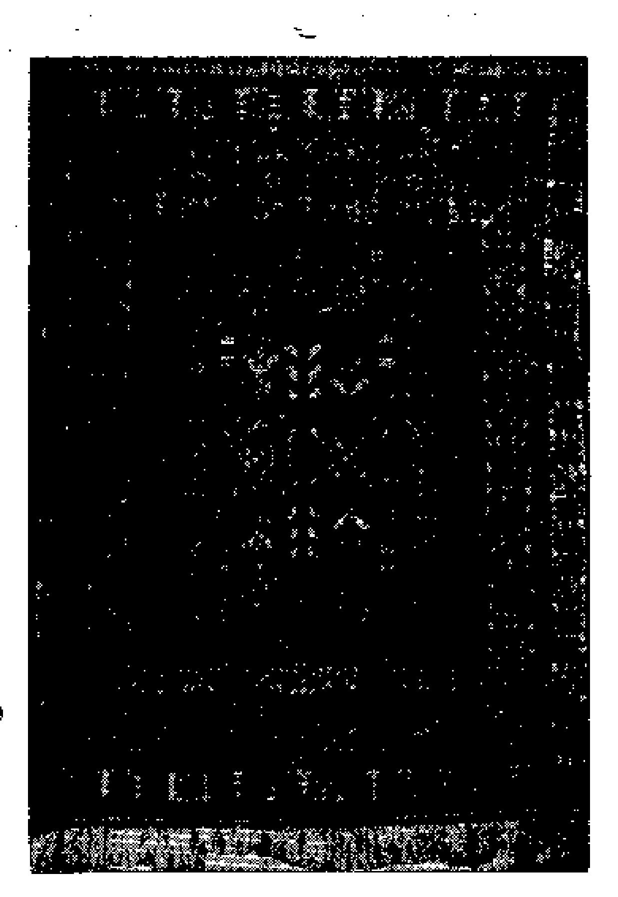
تلك أعراف يرجع وجود بعضها فى المغرب لعوامل اقتصادية وللنعرة القبلية والعصبية الجماعية التى كانت متغلغلة عند البربر والتى زادهــا الاستعمــار تشعبا والآن وقد أعلن الاستقلال وتمت وحدة البلاد وعاد القضاء الاسلامى الى مناطق العرف أصبح من السهل استئصال رواسب الجاهلية لا سيما فى خصوص حرمــان المــرأة من الارثمع الاحتفاظ بما يوافق روح الشريعة والعرف الصالح

ويمكن أن نستخلص من هذا العرض الطابع العام الذى كانت تتسم به المرأة فى المغرب حاضره وباديه وهو مزيج من النشاط والحيوية والصون مع ثقافة نسبية فى كثير من النواحى ونفوذ حاسم فى العائلة ودور اجتماعى واقتصادى يبلــغ احيانــا منتهى الخطورة واحترام مطلق عند الرجل حتى فى أقصى قمم الجبال .

وقد افاد المغرب من حركة الانبعاث التى انبثقت من الشرق العربى أول هــذا القرن فكادت المرأة المغربية تستعيد ما كان لها من سالف عز فــى الحقــل الفكــرى لولا طروء آفة الاستعمار على هذه البلاد وقد تبلور هذا الطموح الشعبى قبل الحماية (عام 1326 موافق عام 1908) فى مشروع الدستور الحفيظى الذى قرر احداث مدارس

للبنات في كل بلدة وقرية وذلك في مرحلة اولية ريثما يتهيأ الفوج الكافي لفتح معاهد ثانوية نسوية .

وبالرغم من الدسائس الاستعمارية توفقت الحركة الوطنية تحت رعاية جلالة الملك وتشجيعه لتنظيم التعليم النسوي في المدارس الحرة ثم انشئت مدارس رسمية للبنات وخصص لهن قسم في جامعة القرويين تخرجت منه بعض العالمات لاول مرة في تاريخ المغرب وتأسست جمعيات نسوية مختلفة وتطورت الحركة بعد الاستقلال بمؤسساتها الاجتماعية وجمعياتها الاسعافية تحت اشراف زعيمة النهضة النسوية الاميرة لالة عائشة ومساهمة اخواتها الاميرات والمغرب مقبل على انبعاث نسوي يشمل جميع طبقات الامة ولنا كل اليقين في ان تتحقق هذه النهضة في دائرة المبادىء الاسلامية بفضل العناية الخاصة التي يوليها صاحب الجلالة نصره الله لمستقبل المرأة في هذه البلاد



زربية من صنع الرباط وهي من أجمل البسط المغربية

الفصل الثاني :

رسالة الاوقاف الاسلامية

تتسم الاوقاف في المغرب باهمية كبرى نظرا للدور الاجتماعي الخطير الذي ينتظر منها القيام به علاوة على مهمتها الدينية .

وقد عرفت الاوقاف في العالم الاسلامي ازدهارا خاصا، ولعبت في مختلف العصور دورا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا كان له اثره في تكييف الاجهزة المسؤولة في الدولة ، وتخفيف الوطأة الى حد بعيد على الميزانية العمومية .

ولن اتحدث في هذه العجالة عن ماهية الوقف وتعريفاته القانونية ، واطاره الشرعي وما اثير حول ذلك من خلافات تند احيانا عن روح الموضوع واهداف المشروع التي هي اهداف انسانية في ذرائعها وغاياتها . وانما اريد ان ارسم لوحة مصغرة عن المظاهر التي اتسمت بها هذه المؤسسة في مختلف الاعصار والامصار الاسلامية .

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد – بشتى الوسائل لتركيز الفكرة الاسلامية وتحقيق ازدهار المسلمين في آن واحد بواسطة « رباع » توقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية وقد ساهم الملوك والشعب في هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهر لتحقيق غاياتها واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا أن الاوقاف كانت تتوفر في جميع انحاء القطر على حسن الاراضي والعقارات وحتى على السوائم الحية في الجبل علاوة على الغرأسات الثرية وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضي الخصبة الشاسعة والاملاك المختلفة في ابان الحماية ولا تزال صكوك تحبيسها موجودة الى الآن .

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسف المارستانات للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلب لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات في كل شهر وبنى الزوايا في الفلوات واوقف لها الاوقاف الكثيرة لاطعام عابري سبيل وذوي الحاجات « الذخيرة

السنية ص 100) ، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث فى هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن « فى كل بلد من بلد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) مدرسة فقامت مؤسساته الاجتماعية فى تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا (الدار البيضاء الحالية) وازمور وآسفى واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر (المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص 35 مجلة هسبريس عام 1925) .

ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعى وهى الاوقاف المعينة على الخبز مثلا الذى كان يوزع اسبوعيا أو يوميا حسب أهمية الارياع هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التى كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة

واذا إعتبرنا ان كل مدينة مغربية كانت تتوفر فى كل حى من احيائها على عدة مساجد باوقافها لمسنا ضخامة الثروة الحبسية فى المغرب ويكفى ان نعلم ان فى فاس وحدها احصى فى زمن المنصور ومحمد الناصر الموحديين (1) 785 مسجدا و 42 دارا للوضوء و 80 سقاية عمومية و 43 حماما » (زهرة الآس ص 33) وكلها حبسية —

وكانت فى المغرب أوقاف من نوع خاص (2) كالتى تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا فى منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتى تنفق فى تجهيز العروس المعوزة واوقاف الاوانى المكسرة وتعهد وتغذية الحيوانات والطيور (كدية البراطيل بفاس) وذلك بالاضافة الى تاسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والشبه هنا

---

(1) وذكر ابن القاضى فى الجذوة أن مساجد فاس كانت قبل اليوم 785 وأما اليوم (عصر المنصور السعدى) فلا تحصى كثرة وعدد حماماتها قبل اليوم 93 وأما اليوم فلا عدد لها (ص 28) .

2) وكانت هنالك أحباس من نوع خاص فى كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثانى ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازى (ج1ص20) وان كراسى العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسى والرسالة ونظم ابن زكرى لها أحباس (ج1ص38) ومن أحباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح فى التدريس (نيل الابتهاج ص 169) وكان بعض العلماء لا يأكلون من مال الاحباس مثل سيدى عبد القادر الفاسى (السلوةج1ص310.

ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (1)

ويمتاز المغرب ومصر بصندوق حبسي للقرض بدون فائدة وكان موجودا بفاس

وأهم ما يسترعي نظرنا في هذا الهيكل المحكم ، هو ان الوقف لم يتخلف تقريبا في اقليم من الاقاليم التي غزاها الاسلام ، بمبادئه السامية ، وتشريعاته المثالية ، فحتى في اقصى بخارى والتركستان تفرعت الهيئات الحبسية ، وتضخمت مواردها طوال قرون الى ان انهزم التتر فاغتصب الروس هذه الاموال واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان قرر الحزب الشيوعي عام 1921 تاميم الاوقاف – باستثناء ما يمس المساجد – وتسليم الاراضي الحبسية الى الفلاح المسلم وغير المسلم ، او تحظير كل وقف جديد

وفي الافغان أمم الامير عبد الرحمن الذى توفى اوائل القرن الميلادى الحالى قسطا كبيرا من الاوقاف ، وادرجها في ميزانية الدولة ، واصبح الائمة والمؤذنون يحتسبون اعمالهم لله بدون مقابل ، الا اكتتابات المصلين ، وتساهم الحكومة والبلديات في تعهد المساجد

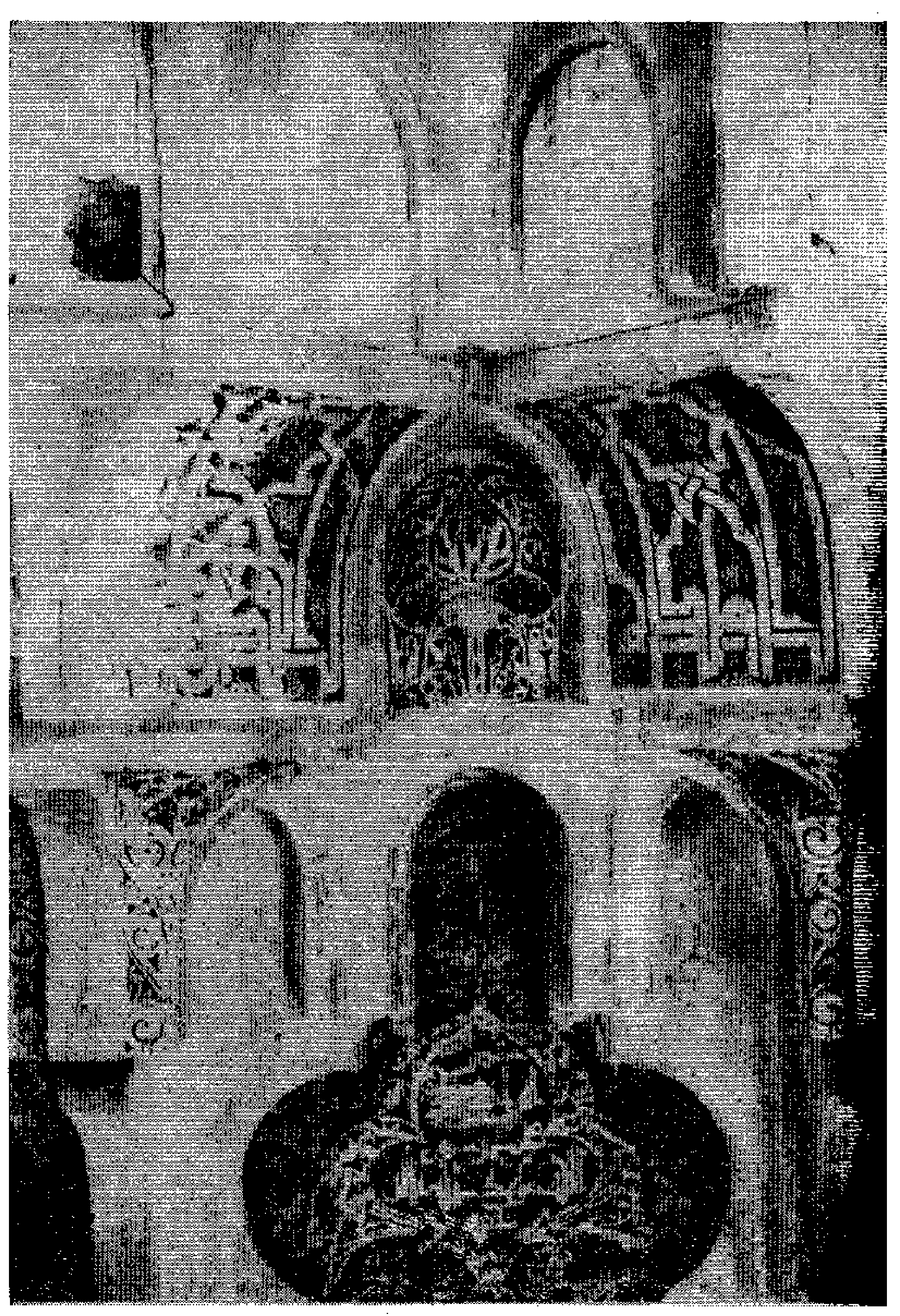
اما في اندونيسيا فانها تمتاز بظاهرتين اثنتين : اولا قلة الاوقاف العقارية نظرا لانعدام الملكية الفردية في معظم النواحى ، وشيوع ملكية الجماعة او القرية ، بحيث لا يملك الافراد حق التوقيف . ثانيا : لا توجد ادراة مركزية للاوقاف

وفي الباكستان تكثر الاوقاف خاصة في القسم الشرقي الذى هو البنغال ، حيث يشرف رجال الافتاء على الاوقاف باعانة لجنة يشارك فيها مندوب عن الحكومة اذا كان الوقف مهما . ورجال الدين مستقلون عن السلطات العمومية ولا توجد اية هيئة مركزية تنسق المسائل الدينية والواقع ان دولة الباكستان الفتية ما زالت في طور الاختمار والاصلاح فقد اصدر المجلس التشريعي في البنجاب ، اوائل 1952 قانونا ينص على صرف ريع الاوقاف (لصالح التقدم والصحة وضمان انفاق موارد الاحباس فيما وضعت لاجله)

وفي اليمن يرجع امر الوقف لبيت المال الذى يتحمل نفقات المؤسسات الدينية ، اما الاوقاف المعينة للاضرحة ، فان عليها نظارا خصوصيين يعينهم جلالة الامام ويسمون

---

1) ذكر صاحب جذوة الاقتباس ان كثيرا من اوقاف المساجد ادخلها أهل فاس في منافعهم وحبسوها من اموالهم أيام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضى عبد الحق بن معيشة الغرناطي فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم فأبرزت المحاسبة 80000 دينارا (ص42) وورد أن الاحباس احتفظت بادارتها المستقلة الى عهد مولاى عبد الرحمن الذى قرر ضمها الى دوائر المخزن والغى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم في كل مدينة ناظرين يعينهما السلطان وقد حاز مولاى حفيظ عند ما بويع بمراكش خمسين الف فرنك من أحباس هذه المدينة .



جامعة القرويين (القبة الثانية قبالة المحراب قبل اصلاحها عام 1952)
وقد وقع الكشف عن نقوش وتلوينات مرابطية رائعة

« نظار التراب » وفي يوغوسلافيا كانت الاوقاف خاضعة منذ الاحتلال النمسوى اى عام 1884 الى ادارة تتركب من مسيرين عن الحكومة ،ولجان استشارية ، وكانت الموارد تنفق بالاخص على المعاهد الدينية . على ان انقلابات شتى طرأت في العقود الاخيرة الى ان صدر في 5 نوفمبر 1936 — دستور الجامعة الاسلامية — بيوغوسلافيا الذى ضمن للجالية المسلمة في البلاد استقلالا دينيا يكاد يكون تاما داخل البلاد وخارجها ، فاصبحت هذه الجامعة منذ ذلك تتصرف في الاوقاف لها ميزانيتها المستقلة وادارتها الخاصة .

والى الاحتلال الالماني عام 1941 كان هنالك مجلسان اقليميان يتركبان من ممثلين جهويين ، ينتخبون لاربع سنوات من طرف جميع المسلمين الذكور البالغين ، ويجتمع هذان المجلسان مرتين في السنة للمصادقة على الميزانية ، وعلى القرارات الخاصة بالاوقاف ، وينتخب كل مجلس لجنته التنفيذية والادارية وفي كل اقليم وكل قرية تسير شؤون الوقف مجالس ينتخب اعضاؤها لاربع سنوات . وريع الاوقاف هام في يوغوسلافيا ، لان معظم المدارس الاسلامية تتعيش منه . وفي عهد تيتو صارت لجان شعبية خاصة تتعهد المساجد . ولجنة العاصمة هي التى قامت بترميم مسجد بلغراد الذى تضرر من الغارات الالمانية

وفي المملكة العربية السعودية لا توجد ادارة للوقف الا في الحجاز حيث تشرف ادارة عامة على شؤون الوقف ، وتصرف ريعه على المساجد ، وعلى الائمة والمؤذنين الذين تعينهم الادارة المذكورة باقتراح من قاضي القضاة . وهذه الادارة التى لها فروع في جدة والمدينة والطائف يوجد مركزها بمكة وتتمتع باستقلال مالي ويمنحها الملك اعانة خاصة عند الاحتياج . وهنالك نظار للاوقاف المعينة كما في المغرب . كما تتشابه في البلدين مسطرة كراء الاملاك الحبسية حيث يوجب القانون المزاد العلني ويحصر المدة في ثلاث سنوات على الاكثر — يمكن تجديد هذه المدة في المغرب لست ثم تسع — .

وفي تركيا الغت الجمهورية الوقف المعين وفرضت مراقبة دقيقة على الوقف العمومي الذى ارتبط مصيره بالشؤون الدينية وفي عام 1924 صدر قانون انشئت بموجبه وزارة للشؤون الثقافية تابعة لرئاسة الحكومة يشرف المسؤول فيها على المساجد والمعاهد الدينية كما الغى نفس القانون وزارة الاوقاف واحدث ادارة عامة مهمتها تنظيم الاوقاف بصورة تتلاءم مع المصلحة الحقيقية للامة .

وفي مصر(1)كانت نظارات الاوقاف مبعثرة الى ان وحدها محمد على تحت اشراف ادارة عامة ولكن الاصلاح لم ينجح الى أن أعاد الكرة الحديوى عباس الاول الذى قصر اختصاصات الادارة المذكورة على مراقبة سير النظار واستعزال القاضى لكل من ثبت عليه اهمال او رشوة منهم . وقد أسس الحديوى اسماعيل وزارة الاوقاف وعوضها الحديوى توفيق بادارة عامة تخضع للسلطان مباشرة وذلك مخافة تدخل انجليزى فى شؤون الوقف اذ ظل تابعا للحكومة ابان الاحتلال . وقد اعيد نظام وزارة الاوقاف عام 1946 كما أصبح المجلس الاعلى للاوقاف ــ متركبا من وزير الاوقاف كرئيس وشيخ جامع الازهر ووزير الاشغال العمومية ووزير الصحة ووزير المالية ورئيس لجنة النزاعات التابعة للدولة ونائب كاتب الدولة فى وزارة الاوقاف ومفتى مصر . وهذا المجلس هو الذى يتكفل بتحضير الميزانية وتقرير الاعتمادات والمصادقة على أعمال الترميم والبناء والتجديد والاقتناء والبيع والعقود التى تزيد قيمتها على 1500 جنيه وللوزارة مصلحتان:فى مكة والمدينة لمراقبة احباس الحرمين وقد بلغت مداخيل الاحباس المصرية 180 163 4 جنيه ومصاريفها 192420 3 جنيه عام 1950 — فى حين ان مداخيل الميزانية العامة ومصاريفها تبلغ 000 800 157 جنيه و 000 500 187 — وتتعهد الوزارة بعض المستشفيات وملاجىء العجزة والايتام حيث كانت تتبنى فى القاهرة وحدها 600 يتيم كما تخول منحا لطلبة الازهر ومنذ عام 1943 اصبحت تقرض ذوى الحاجات بدون فائدة .

وفي سوريا تشرف على الوقف ثلاث هيئات ، هى الادارة العامة للاوقاف ومجالس منتخبة خاصة فى المحافظات والنواحي والمجلس الاسلامى الاعلى الذى يوجد مركزه فى العاصمة . أما مجالس المحافظات فانها تتركب من ستة أعضاء فيهم عالم وتاجر وملاك ومتمول ومهندس وخبير فنى ومحام وكلهم منتخبون وقد بلغت ميزانية عام 1949 ، 2100000 جنيه سورى — وقد منحت الدولة للاوقاف فى نفس السنة 544000 جنيه ,

وفى لبنان يوجد وضع خاص نظرا لتشعب الملل والنحل هناك . ولكن حكومة لبنان اقتبست عام 1947 من النظام المصرى

---

1) كانت ثلاثة ارباع الاراضى الزراعية فى تركيا العثمانية كلها فى ملك الاوقاف وتدل الاحصائيات المصرية لعام 1935 على أن سبع الفدادين المزروعة فى ملك الاحباس وبلغت المحبسات الجديدة مابين سنتى 1930 و 1935 نحو الخمسمائة و 8000 هكتار من الارض وكان عدد المتمتعين بارباع الاوقاف 70,000 نسمة وقد بلغت ميزانية الاوقاف عام 1934 و 1935 (وهى فترة الازمة الاقتصادية) 1.570,000جنيهووصلت مداخيل وقف الاسرة المالكة الى مليون جنيه وقد ألغى الوقف المعين أو الخاص فى سوريا عام 1949 وفى مصر عام 1952 فى حين ضوعفت مراقبة الاوقاف العمومية نظرا لرسالتها الاجتماعية .

وفى الاردن تأسست عام 1946 ادارة مركزية للاوقاف مستقلة عن الهيئة المركزية للشؤون الدينية ، وهى تابعة لرياسة الوزارة ، وتتركب من مجلس اعلى ومدير عام ومراقب عام للحسابات وأمين وموظفين ولجن محلية

وفى العراق كذلك تشرف على الاوقاف هيئة يرأسها مدير عام ويعينه مفتش عام مكلف بالشؤون المادية والادارية ، الا ان لجان هذه الادارة العامة المنظمة للاوقاف ، تتركب من مديرين محليين فى 14 ولاية ومامورين للاوقاف . وللاوقاف ميزانية خاصة يصادقعليها البرلمان مثل الميزانية العامة

وقد بلغت ميزانية الاوقاف 472000 دينار عام 1951 بينما بلغت الميزانية العامة 25 مليون دينار

وفى ايران توجد بوزارة المعارف ، ادارة عامة للاوقاف ، وفى الاقاليم والولايات مديرون وتندرج ميزانية الاوقاف فى ميزانية المعارف العمومية ، ويراقبها المفتشون العامون التابعون لهذه الوزارة

اما فى المغرب العربى ، فان الانظمة تتسم كذلك بطوابع خاصة ، ففى طرابلس توجد ادارتان جهويتان للاوقاف ، وفى كل الاقليمين مجلس يتركب من رئيس وثلاثة مستشارين ، ومدير، تعينهم السلطات الحكومية بعد استشارة القاضى وتتصرف هذه المجالس فى شؤون الاحباس تحت مراقبة المحاكم الشرعية ، ولكل مجلس ميزانيه مستقلة ، تصادق عليها الحكومة وتراقب تنفيذها مصالح المالية الحكومية

وفى الجزائر (الشمالية على الاخص) ادمجت الاملاك الحبسية ضمن أملاك الدولة بعد الاحتلال واصبحت الدولة الفرنسية تعتبر نفسها المحط النهائى الذى ترجعاليه الاوقاف المعينة بعد اندراس المعقب عليهم . ورغم ما تقرر عام 1947 من فصل الشؤون الدينية عن شؤون الدولة ، فانه لم يحدثشاى جديد فى الموضوع وتولى الحكومة بعد الاستقلال عناية خاصة بالاوقاف حيث شكلت وزارة للاهتمام بشؤونها

وفى تونس ادمجت الاوقاف فى ميزانية الدولة بعد اعلان الاستقلال وكانت ادارة الاحباس تتركب من مجلس ادارى وادارة مركزية ، وادارة محلية ومتصرفين فى الاوقاف . والكل يخضع لمراقبة المجلس الاعلى للاحباس

وكان يشرف على الادارة الحبسية منذ 1944 رئيس المجلس الادارى ، الذى يعينه نائبان ، احدهما يسير المصالح الادارية والآخر المصالح المالية وينقسم الجميع الى عدة مكاتب مثل المكتب العقارى ، ومكتب النزاعات ومكتب التسيير ومكتب الزياتين ومكتب الاحباس المعينة ، ومكاتب الحسابات والميزانية ، والاحصاء والتوزيع والاصلاحات والترميمات

وكانت الادارة المحلية تحتوى على I4 مفتشا او نائبا يمسكون سجـلات الاملاك الحـبسيـة

ومن هذه العجالة ، تتضح الاهمية القصوى ، التى تتسم بها الاوقاف فى مختلف مناحى العالم الاسلامى



صقالة الصويرة بمدافعها وبرج المنار (الفنار) الذى تستضىء به السفن فى طريقها الى مدخل المرفأ

الفصل الثالث :

الاسلام في المجتمع البربري

كتب الاجانب عن البربر وتقاليدهم كثيرا من المصنفات وتقدموا بشتى الاطروحات فى هذا الموضوع الذى اكتشفوا فيه مادة وافرة لتطعيم سياسة التفرقة بين العرب والبربر ولكن بالرغم عن الحاجز الكثيف الذى أقيم بين الجبل والسهل وعن المناطق الحرام المصطنعة وعن الدسائس التى حيكت لفصل البربر عن الشريعة بدعوى أن لهم عرفا يتمسكون به ولا يريدون به بديلا بالرغم عن هذا وذاك تمخض الكفاح ـ كفاح الجبل والسهل — عن رجوع الوحدة الى مجراها وعن استقلال بنى أسسه ويدعم اليوم مستقبله العرب والبربر معا

ان الاسلام كان دائما الدعامة الكبرى والعروة الوثقى التى تربط بين أجزاء المغرب وتوحد فى جنباته المتباعدة لا المظاهر السطحية فقط لان المظاهر لا تعنينا كثيرا — ولكن الروح والذهنية اللتين هما المرآة الحق لنفسية الشعب ومثله العليا .

جلس الملوك المرابطون والموحدون والمرينيون على عرش المغرب وهم برابرة فكان اول عمل قام به الملثمون هو — كما يقول ابن ابى زرع « رد احكام البلاد الى القضاة واسقاط مادون الاحكام الشرعية » (ج 2 ص 37) بل « عدم القطع فى أى أمر دون مشاورة الفقهاء » الذين هم ممثلو الشريعة (المعجب ص 102) وبادروا فى نفس الوقت الى الانضمام لدار الخلافة العباسية اعلاء لكلمة الاسلام وتوحيدا لربوعه المتنائية وكاد يجمع المؤرخون — حتى المتصعبون منهم للنعرة البربرية ، على أن الفكرة الاسلامية كانت هى العامل القوى فى بناء « الامبراطورية » المغربية التى امتدت من السودان الى برقةوقشتالة بالاندلس ولم يتمالك بعض هؤلاء المؤرخين عن اظهار حنقهم ضد البربر لكونهم « لم يشعروا بتقاليدهم الخاصة ولكون ملوك أمازيغ لم يستطيعو التعرف الى المشاكل التى يثيرها العالم البربرى ولم يحاولوا تحقيق وحدة جنسهم المعنوية ، نعم « قضى هؤلاء الملوك المرابطون والموحدون — باعتراف المؤرخ طيراس — على بقايا رواسب الوثنية فى الاطلس والريف والسهول البربرية وقطعوا اشواطا كبرى فى بث الروح الاسلامية فى النفوس والتمسك بالشريعة »

وقد آكد الاستاذ « اوبان » فى كتابه « مغرب اليوم » أن الاسلام حمل معه عاملا

ثمينا للوحدة في كل بلد اعتنقت الدين الجديد وهذا العامل هو العربية التي هي لغة الدين ولغة الحضارة » وقال في موضع اخر : « لا يوجد سوى رابطتين يمكنهما جمع أشتات هذه الذرات المتناثرة ، وتكوين دولة : وهما رابطة الدين المتولدة عن العقيدة الاسلامية والرابطة السياسية التي يتمخض عنها تطور المغرب التاريخي ذلك التطور الذي يحيل الجامعات المشتتة الى سلطة مركزية ..

وقد تغلغلت « أداة الفكر العربي ولغة القرآن في أعرق قرى الاطلس حيث يتلـو الصبيان القرآن ويتبعه الناس في صلواتهم عن طريق العربية وقد أكد روبير مونطاني الذي قام بتحقيق في هذه النواحي أن البربر « نقلوا الى لهجاتهم من اللغة العربية كل مايتصل بالدين والسياسة والآداب والمجاملات والضيافات (ثورة في المغرب ص 372)

على أن كثيرا من القبائل التي تلهج بالبربرية هي من أصل عربي ويكفي أن نعلم أن في الاطلس وسوس والريف قبائل تنتسب الى قريش وهي مع ذلك مزجاة البضاعة في لغتها الاصلية فالمسألة اذن مسألة ملابسات محلية .

أما انتشار الشريعة في الربوع البربرية فقد تحقق نوعا ما في عهد الادارسة ثم في عهد المرابطين الموحدين والمرينيين وبدأ يفتر بعد ذلك رغم انبثاق السعديين وحتى العلويين باسم الاسلام والقرشية من صحراء المغرب الشرقية او الجنوبية وقد حدثنا الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي عن بعض القبائل البربرية التي زارها في القرن العاشر فلمس رغبة الناس في طبع مظاهر حياتهم بالطابع الاسلامي واستعداد البربر لايواء حملة الشريعة الاسلامية الذين تنقلهم الصدف الى قراهـم وتمنيتهـم بالمال وقد حكموا ليون الافريقي نفسه في نزاعاتهم وفي الاطلس الكبير حكى ابن الوزان ان القبائل تصرف أموالا طائلة على قضاة دائمين كما هو الحال في مرنيسة وفي بني زروال وشيشاوة ، وتينمل وكذلك الريف ولكن كثيرا من القبائل اضطرت — في مختلف مراحل التاريخ — ازاء انعدام القضاة الشرعيين الاكفـاء — الى تحكيـم جماعة الاعيان الذين — نظرا لجهلهم بالشريعة — يصدرون احكامهم حسب رأيهـم وقد تكونت خلال الاجيال من احتكاك هذه الآراء ومقارنة نتائجها أعراف حادت أحيانا عن الاسلام كما وقع في الارث حيث نحيت المرأة بسبب ما يخشاه البرابرة من تسرب الزوج الاجنبي وتدخله في الملك العائلي والا « فان تجريد المرأة من الميراث لا يستمد — كما يقول سوردون في المؤسسات البربرية ص 213 — من روح معارضة الاسلام »

ويلاحظ « سوردون » هذا في دراسته للاعراف البربرية انه « لا يوجد تعارض ما بين الشريعة والعرف » على أن الاسـلام نفسه يحكم الاعـراف المحليـة الصالحـة « فالعادة عند البربر — كما يقول سوردون — تسمى اما شرعا واما عرفا فالشرع هو العرف العام أما العرف الحقيقي فهو تلك المجموعة من الاجراءات الجنائية والاتفاقات المبرمة بين مختلف الجماعات لتحديد بعض نقط العرف أو تعديلها لا سيما في خصوص

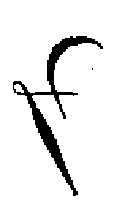
المخازن العامة «أجدير» أو «السواقي» (ص 281) وهكذا يظهر ان العرف العام هو الشرع وهو الذي يطبق في كافة القبائل التي تتأتى لها وسائل تطبيقه ولكل قبيلة عرفها الخاص (ص 240) وفي وادي درعة مثلا حيث استمر العمل بالعرف « يسمى القانون الخاص غالبا شرعا وكان يطبقه قبل اليوم حكام يدعون قضاة أو مفتين يختارون من بين الطلبة الاكفاء الذين درسوا الشرع الاسلامي وحذقوا جزئياته وهنا أيضا « لم يقع أي تصادم بين الشريعة والعرف » (سوردون ص 342) وهذا المبدأ عام في مجموع المغرب العربي ففي الاوراس – بالجزائر – مثلا ، نراهم يستعملون الشريعة الاسلامية وقد احتفظوا مع ذلك بأعرافهم الخاصة التي تستمد وجودها من الملابسات الجغرافية الشبيهة بما في السوس او الاطلس الاوسط بحيث نرى بلاد الشاوية الجزائرية تلتجىء في فض نزاعاتها العامة الى القاضي المالكي وفي الخلافات الخاصة الى أعيان الجماعة (ص 395) وهكذا نرى المغرب العربي منقسما شطرين كلاهما يستمد من روح الشريعة الاسلامية فالمذهب المالكي الذي يتمذهب به نحو 70 مليونا في العالم الاسلامي يطبق في حواضر المغرب العربي وكذلك في القبائل التي يتأتى لها الاتصال بهذه الحواضر أي في نصف افريقيا الشمالية تقريبا بينما يتركز العرف الممزوج بالفقه الملكي في الشواهق ..

وهذه الملابسات الخاصة هي التي حدث ملوكنا الى احترام الاعراف المحلية لانها في الحقيقة تساير روح الاسلام وقد لوحظ أن كثيرا من الاعراف المحلية صادق عليها الملوك باقتراح من الاشراف المحليين واهل الدين كالظهير الحسني الصادر في شأن الاعراف الجنائية بزمور الشلح وكما وقع ايضا في أداوتنان عام 1106 هـ في زاوية سيدي ابراهيم وعلي وكثيرا ما ترجع القبائل تلقائيا الى تطبيق الشرع الاسلامي متى تيسرت لها الاسباب فقد نشرت مجلة هسبريس (ج 18 سنة 1934 ص 46) وثيقتين ذكرت أنهما أقدم ما يوجد في القانون الجنائي العرفي بالمغرب ويرجع تاريخهما لعام 1512 م وقد ورد في مقدمتهما أنه « بعد التعرف الى الضلال الذي تنطوي عليه الاعراف العتيقة أصبح رئيس القبيلة يطبق ما ورد في القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في خصوص الجرائم تبعا لآية القصاص »وقد نشر لائحة من الديات فالذي كان ينقص النواحي البربرية اذن لتطبيق الشرع الاسلامي هو الوسائل وقد توفرت اليوم بحمد الله بعد اعلان الاستقلال والغاء الظهير البربري حيث تمكنت وزارة العدل التي تشرف على الاجهزة القضائية بكافة انحاء المغرب – أن توحد النظام القضائي على أسس تستمد من الشريعة الاسلامية الصالحة لكل الاعصار والامصار كما تستمد كل ما يتلاءم وروح الاسلام مما تنطوي عليه الاعراف المحكمة والقوانين



مخزني من حشم القصر الملكي

العالمية (I) وهى مهمة شاقة جدا ومسؤولية خطيرة ولنا فى الاقطار الاسلامية الاسوة الحسنة حيث نجد فى القضاء المصرى مثلا ، ذلك النوع من التناسق المطبوع بطابع الاسلام ومن المرونة التى تتسع لكل جديد صالح



(I) نقل ابو الوليد محمد ابن عبد الله بن خيرة فى تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيرا بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصا فى المائتين الرابعة والخامسة من الهجرة ومن هؤلاء هربرت والبرت اللذان طلبا مساعدةالعلماء لابرازمقصدهمافساعدوهما على تدوين الفقه كاملاوحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك نرى أحكام القوانين والقضاء لا تزال رديئة وسيئة فى العدوة الشمالية وهربرت هذا هو الباباسلفستر الثانى الذى يقال انه درس فى القرويين .

الفصل الرابع :

الحالة المدنية

العرب من اشد ان لم تقل أشد الشعوب اعتناء بالانساب وقد انتظمت عندهم هذه الانساب حتى اصبحت المعرفة بها تكون علما له قواعده ونواميسه والمختصون فيه وفي هذا العلم كانت تتجلى مقدرة العرب على الاستذكار والوعي حيث تجد الرجل يعرف عن كل عائلة من قبيلته وحتى عن بعض القبائل الاخرى حلقاتها السلالية بما يتصل بها من اسماء وتواريخ ومميزات .

والحالة المدنية تشمل ثلاث مراحل في حياة الفرد فهنالك سجل للمواليد وآخر للانكحة وثالث للوفيات فلننظر الى اى حد كان هذا الثالوث محفوظا عند العرب وبأية وسيلة حفظ ؟ فهنالك قضية لا نشك فيها وهي ان العرب وان لم تكن لهم في الاغلب اساليب عمومية منتظمة لتسجيل الحالة المدنية فقد كانوا يضبطون هـذا التسجيل في اطار عائلي مما ساعد رجال التراجم والتاريخ على اثبات كل ما يتصل بعلماء الاسلام وشعرائه وفقهائه وفلاسفته وباقي العظماء من احداث بتواريخها الدقيقة .

ولكن ينسب الى معاوية بن ابي سفيان الذى امتدت في عهده حدود المملكة الاسلامية وغزا بلاد الروم بألف وسبعمائة سفينة — نوع هام من تسجيل الحالة المدنية لا سيما في مصر حيث جعل على كل قبيلة موظفا خاصا يدور كل يوم على مجالس القوم فيسالهم هل ولد لهم مولود وهل نزل بهم طارق فيسجل لفلان غلام ولفلان جارية مع اسميهما وكان هنالك ديوان خاص يرجع اليه اولئك الموظفون الجهويون لتسجيل اسماء المواليد وبهذا كانت الدولة تحصي عدد السكان ولا يفوتها خبر من ينتقل في ارجاء البلاد وكان الى جانب ذلك سجلات للجند بالخصوص .

وهذه الروح المركزية كانت قوية منذ صدر الاسلام فقد ورد في كتاب التاج المنسوب للجاحظ ان عمر كان علمه بمن نای عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد فلم يكن له في قطر من الاقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا امير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه وما وجده فكانت الفاظ من المشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح .

وكانت هنالك وسائل رسمية وعائلية لحفظ اركان الحالة المدنية لا سيما قسم

الانكحة والوفيات المتصل بالارث فكانت سجلات المحاكم الشرعية لا تـزال مرجعـا موثوقا به فى هذا الباب ولكم من سلالات امكن ربط حلقاتها بعد قرون عديدة بمجرد الرجوع الى رسوم عائلية كثيرا ما تنضبط فيها تواريخ الموالد والوفيات وغيرهـا وكان فى العائلات علاوة على رسوم متوارثة ما يسمى بشجرة النسب وكانت العائلات قبل اليوم تعنى عناية كبرى بهذه الاشجار فتضبط ما يتفرع عن اصولها على تعاقب الاجيال وما يتصل بهذه الفروع من تواريخ ولكن هذه العناية فترت فى القرن الاخير حتى انصرم حبل كثير من السلالات بظهور حلقات مفقودة وتواريخ غيـر مضبوطة بينما كان يندر فى القرون الماضية ان تفلت لاسرة من الاسر حلقة من الحلقـات فـى سلسلتها السلالية وقد استولت علينا فى العصور الاخيرة روح لم يكن آباؤنا يانسونها وهى اعتمادنا على الذاكرة واهمالنا التسجيل (وقد يكون لظهور الطباعة اثر فـى فتور همة التخطيط عندنا) بحيث كثيرا ما اصبحت اهم الاحداث فى تاريخنا المعاصر تضيع بالنسبة للدولة وحياتها وبالنسبة للافراد وكانت لنا الى نهاية القرن الماضى كنانيش تسجل فيها حالة الجنود المدنية غير انها لم تكن عامة ولا منتظمة ومع ذلك فقد ظلت روح الاحصاء بشكلياتها المملة متغلغلة فى الفكر العربى حيث نجد المؤرخين يدلون بارقام مضبوطة يستندون فيها الى سجلات الدولة او بعض الاحصائيات الفردية فقد احصى فى فاس ايام المنصور والناصر الموحديين وكذلك فى قرطبة ايام الناصر الاموى عدد الدور والمساجد والحمامات والفنادق والارحاء والمصانـع وحتـى عـدد المصابيح فى بعض المساجد وعدد الكتب والمخطوطات فى الخزائن المهمـة والشواهـد على ذلك مختلفة واحصى عدد سكان المغرب فى القرن العاشر فى الحواضر والبوادى مع عدد المدن الذى وصل اذ ذاك الى مائتين وخمسين ويروى ان المولى اسماعيـل عمد الى احصاء عدد السكان فى بعض النواحى وهو الذى كان يضبط سجل عناصر جيشه بما يتصل بمراحل حياتها ضمن الجيش ولكن هذه الروح فترت حتى كادت تتلاشى بـالمـرة .

وبالجملة فان حفظ الحالة المدنية كان يجرى فى الامم العربية غالبا على هامش الاطار الادارى الذى لم تكن فيه سوى سجلات خاصة بطبقات من الشعب دون غيرها ومع ذلك فالانساب عند العرب وكذلك مراحل حياة الافراد كثيرا ما كانت تنضبط بـدقـة .

الفصل الخامس :

سكان المغرب

يتعذر على الباحث ان يرسم صورة كاملة عن عدد سكان المغرب في مختلف مراحل تاريخه ولكن هنالك وثائق كثيرة تعطينا نظرة تقريبية عن عدد هؤلاء السكان في بعض العصور فلنستعرض ما سجلته تلك المستندات ولنقس المجهول بالمعلوم محاولين سد بعض الفراغ في هذه المسألة الشائكة :

ذكر عدة مؤرخين عرب ان سكان الرباط في القرن الثالث أى قبل تأسيسها بثلاثة قرون كان ينيف على المائة الف وكانوا كلهم مرابطين لاقرار لهم تاتى افواج وترتحل اخرى في تجدد مطرد وكانت الرباطات في ذلك العهد اهلة بالمجاهدين ومنتشرة على طول الساحل . وقد بلغ عدد سكان مراكش عاصمة المرابطين أيام على بن تاشفين نحو المائة الف نسمة وانحط هذا الرقم الى ثلاثة عشر الفا ايام الحسن بن محمد الوزان (اوائل القرن العاشر) الذى اثبت الرقمين معا في رحلته .

واذا عرفنا عدد سكان مدينة واحدة امكننا أن نقيس فنستخرج رقما تقريبيا لسكان مجموع المدن التى كان عددها ينيف على المائتين هذا علاوة على عدد سكان البادية والجبل ، اما في العهد الموحدى فان رقعة المغرب قد اتسعت فتضخم بذلك عدد الرعايا المغاربة بالنسبة للعصر السالف وقد أمكن لعبد المومن بن على ان يجمع في بسيط سلا وحده ثلاثمائة الف من المجاهدين وفي أيام المرينيين زار المغرب رحالة انجليزى وطاف على مختلف انحائه فقدر عدد سكان عاصمة فاس وحدها بمليون نسمة وليس هذا الرقم ببدع اذا علمنا ان مدينة فاس كانت اذ ذاك عاصمة المملكة ومهبط رواد العلم والمال والجاه وقد ورد ان عدد سكان عاصمة قرطبة بلغ نصف مليون أيام الناصر بل ان سكان بغداد تجاوزوا مليونين اثنين ايام الرشيد وقد اصبحنا نسمع في السنين الاخيرة ان عدد سكان بعض كبريات العواصم يبلغ العشرة ملايين او يزيد وقد اورد الحسن بن محمد الوزان في رحلته مجموعة من الارقام جاء فيها ان المجاهدين العرب وحدهم بلغ عددهم في عصره 694 الفا من المشاة و 65.300 من الفرسان وان جنود البربر بلغ عددهم في اثنتين وثلاثين قبيلة 463.600 وكانت هنالك ثلاث واربعون قبيلة اخرى ينوبها من الجنود نحو 622 الفا فيكون المجموع مليونا وخمسة

وثمانين الفا وستمائة جندي .

واذا طبقنا نظرية المؤرخ كاريط القائلة بانه اذا ما زيد على عدد الجنود ربعه (الذى يمثل الزمنى والمرضى) كان ذلك ثلث مجموع السكان امكننا أن نقدر عدد سكان القبائل العربية في المغرب (اوائل القرن العاشر) بـ 2.850.000 والقبائل البربرية بـ 4.071.000 فيبلغ مجموع عدد سكان البدو ما يناهز سبعة ملايين نسمة . وورد في رسالة كتبها فرنسي من المغرب لاحد مواطنيه أيام المولى اسماعيل ان المغرب كان فيه اذ ذاك 250 مدينة اصغرها لا ينقص عدد سكانه عن ثلاثين الفا وكان بفاس وحدها (ستة عشر مائة الف نسمة) على حد تعبير الراهب أي مليون وستمائة الف من السكان وهذا الرقم يعضده ما نقلناه عن الرحالة الانجليزى اعلاه .

واذا كانت فاس تسع هذا العدد من الناس فان كبريات العواصم الاخرى – لا سيما منها عاصمة المولى اسماعيل ملك ذلك العهد – تؤوى على الاقل مائة الف نسمة على اننا اذا قدرنا معدل سكان المدن المغربية بخمسين الفا للواحدة فان مجموع سكان المدن يبلغ اثنى عشر مليونا ونصف مليون زيادة على المليون والستمائة الف التى بفاس فيكون الجميع نحو الاربعة عشر مليونا في المراكز الحضرية وحدها فاذا اضفنا الى ذلك السبعة ملايين من البدو (الذين اثبت وجودهم بالمغرب الحسن بن محمد الوزان قبل هذا العهد بنحو القرن) صار الجميع واحدا وعشرين مليونا ولاشك أن في هذا الرقم شيئا من الشطط ولكن ليس هنالك ما يدحضه على اننا اذا فرضنا ان معدل سكان المدن بلغ 30.000 نسمة فقط بدل 50.000 امكننا ان نصل بمجموع عدد السكان الى ما ينيف على ستة عشر مليون نسمة وهو رقم مقارب لما لوحظ اواخر القرن المنصرم .

وقد ذكر المؤرخ الفرنسي دوفونطان ماكسانج في الكتاب الذى صنفه حول المولى اسماعيل ان الوباء الذى اجتاح اوربا في القرن السابع عشر (أى الحادى عشر الهجرى) اخلى مدينة روان الفرنسية ثلاث مرات (1619 – 1623 – 1667) واستاصل شافة سكان سارلات عام 1634 وريمس عام 1640 وتوالت على باريز خمسة اوبئة في ظرف خمسين عاما اهلك احدها ازيد من اربعين الف نسمة في العاصمة الفرنسية وقد انتشرت عدوى هذا الوباء الوبيل في المغرب ءاتيا من أوربا فبدأت بتطاون حيث بلغ عدد ضحاياها – على ما يقال ولعل في ذلك مبالغة – 25 الفا خلال عامين وفي القصر واصيلا 32 الفا وفي مكناس 52 الفا اثناء ثلاثة اعوام وفي فاس خلال نفس المدة 85 الفا وفي سلا في ظرف عامين اثنين 18.000 وازمور ثمانية آلاف وتافيلالت ونواحيها سبعين الفا ولم يهدأ تيار الوباء الا عام 1681 بعد ان قضى في المغرب وحده على نحو الاربعة ملايين ومع ذلك فقد ظل المغرب مائجا بالسكان بالرغم عن هذا الطاعون الذى هبت سمومه من اوربا حيث عجز الطب عن ايقاف تياره وقد انتشر بالمغرب في ذلك العهد

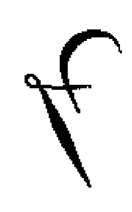


الضارب على الكنبرى

من الامراض التي كانت معروفة باوربا كالمرض المسمى بمرض الدنيا والمرض الكبير ومرض النسا وسمى ليون الافريقي هذا المرض بالمرض الاسباني او الفرنسي .

وكان معدل اعمار سكان المغرب يتراوح بين 65 و 70 سنة بل كان يزيد في الجبال الاطلسية (حيث الهواء الطلق) على المائة عام وقد أيد المؤرخ كيون هذا المعدل مستندا الى وثائق يرجع عهدها للعصر الروماني ولا يخفى ان المرابطين والموحدين والمرينيين اهتموا كثيرا بحالة المغرب الصحية فاكثروا من المارستانات وجهزوها بكامل المعدات ووسائل الراحة وكانت في ارباض عاصمتي فاس ومراكش مراكز لايواء المجذومين كما كان في عاصمة الموحدين مارستان لا يقل في سعة مرافقة وجودة اجهزته واقتدار اطبائه عن كثير من مستشفيات العصر الحديث وقد قام المولى اسماعيل خلال الوباء المذكور بدور خطير في تخفيف لوعة البؤس وتحديد خطر الطاعون الداهم.

على ان من أهم العوامل التي كانت تحفظ التوازن الصحي في البلاد قلة ان لم نقل انعدام الخمور والامراض التناسلية مع تمكن صفة القناعة من معظم السكان لا سيما في البادية والقناعة اخت الحمية والحمية رأس الدواء ولكن الدسائس التي بدأ الاجانب يحيكونها بقوة واستمرار خلال القرنين الاخيرين قد اثرت في عوائد البلاد فشاع الترف وانتشرت المواخير في طي الخفاء وكثر البغاء وعمت امراض داخلية لم تكن معروفة من قبل فتضخم عدد الوفيات وتناقص بسبب ذلك عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر مليونا في القرن الماضي — فيما يروى — وهو يبلغ عشرة ملايين الآن .



القسم الثاني:

المظهر الحضاري الاقتصادي

الفصل السادس :

الاقتصاد في الف عام

يظهر أن المغرب عرف – خلال عهود السيطرة الاجنبية – فترات من الفوضى يستعصى وصفها فلم يحاول الفنيقيون ولا القرطاجنيون ولا الرومـان – كما يقـول ميشو بيلير في محاضراته – ابتداع شيء من النظام لجعل حد لهذه الفوضى فقد استنزفوا خير البلاد جهد المستطاع صارفين نظرهم الى خيراتها اكثر من اعتنائهم بأهلها ويلوح أن سكان النواحي التي خضعت مباشرة للسيطرة الرومانية والبزنطية كانوا في حالة أقرب الى الاسترقاق يرضخون لاقسى انواع التسخير ولاشد التكاليف ارهـاقـا ، واذا كانت افريقيا الشمالية قد استطاعت في كثير من الاحايين أن تستفيد من بعض مبتدعات القرطاجنيين في الميدان الفلاحي وان تضمن بشق الانفس استهلاكها الداخلي « فان افريقيا الرومانية كانت كلها في ملك خمسة من كبار الشخصيات الرومانية – حسب بلين – وكان اكبر ملاك عقاري هو الامبراطور نفسه » « وأمست البلاد عبارة عن حقل شاسع يستغل استغلالا كليا » (أندرى جوليان) لهذا رأينا أنه عند ما حمل عقبة بن نافع الاسلام الى المغرب للمرة الاولى عام 61 هـ (680 م) تقبل أضعف الناس هذا الدين الجديد بمثابة خلاص من الجبايات المرهقة ، ذلك ما لاحظهميشيو بيليرالذى قارن بين مفعول الاسلام ومفعول المسيحية في الربوع الافريقية فأكد أن المسيحية لم تحمل الى افريقيا على ما يظهر سوى الحروب الدينية والاضهادات والنزعات الطائفية ولعل ذلك هو ما سماه الاستاذ طيراس « بالنظام اللاتيني والمسيحى »

وهكذا استقبل المغاربة الفاتح العربي كمحرر لا سيما وأن العرب حملوا معهـم كما يقول كوتيي « حكومة نظامية مجهزة بجميع الهيآت العسكرية والادارية » ولكن الكاهنة اليهودية نشرت الدمار والخراب في بلاد كان الناس يمشون في ظلال أشجارها فأثارت ضدها المزارعين والحضريين معا

وفي عام 85 هـ تم اسلام مجموع المغرب واستطاع القادة العرب تفهم البيئة البربرية لما بين العالمين العربي والبربري من تشابه في الجهاز الاجتماعي والقوام الاقتصادى

وعاش الجانبان فترة يسيرة في وئام كدر صفوه عامل طنجة عمـر بن عبد الله المرادى الذى أراد تخميس البربر خارقا بذلك مبدأ المساواة حيث اعتبر البربر فيئا

للمسلمين ، فثار البربر عام 122 بقيادة ميسرة المدغرى تحت شعار مذهب الخوارج الداعى الى المساواة بين المسلمين (البيان المغرب ج 1 ص 52)

ولكن مالبث المغرب أن تحرر من القيود الجبائية لا سيما فى عهد الادارسة فتنفس الصعداء وانطلق الاقتصاد المغربى من العقال الذى كان يخنقه فازدهر وانتظم وأصبح « منطقيا قارا » كما وصفه المؤرخ طيراس

وكان هذا الاقتصاد فلاحيا فى جوهره : سوائم وزروع وفاكهة . واذا استثنينا الصحراء القاحلة نجد أن الجنان والغابات كانت تغطى مقاطعات مترامية الاطراف حتى فى الاطلس الذى وصف ابن خلدون ثرواته الضخمة والذى قال عنه الاستاذ سيليريى بأن جانب النقص فيه هو قلة الارض لا قلة الماء

وكان الطابع الحضرى يعوز المغرب قبل الفتح الاسلامى واذا كانت هنالك مدن قديمة وجدها العرب فى المغرب فانها لم تكن حواضر متماسكة كالتى سيعرفها المغرب منذ عهد الادارسة وانما كانت عبارة عن مجموعة مداشر أو « قصور »

فمدينة فاس التى بناها المولى ادريس (ادريس الاول حسب أبى بكر الرازى وابن سعيد وادريس الثانى حسب بقية المؤرخين) والتى كانت – فى نظر كوتيى – اية فى الاقتباس من الحضارة الشرقية أسست فى ناحية كانت تعتبر منذ ذاك من أغنى نواحى المغرب وما لبث محيطها الخاص وموقعها فى مفترق الطرق الكبرى قرب ممر تازة – الذى هو أعظم ممر بين افريقية والمغرب – ان جعلا منها المركز الثقافى والاقتصادى للمغرب وكانت هذه هى أولى الخطوات نحو التركيز والتخفيف من عوامل التشتت القبلى .

فقد وجد البربر فى بساطة الاسلام السمح مقومات الوحدة وجواذب نحو الحياة الحضرية التى طعمتها عناصر جديدة هاجرت الى المغرب كالاندلسيين الذين انتقلت منهم الى فاس 800 (1) عائلة حوالى المائة الثانية الهجرية على اثر وقعة الربض ثم 300 أسرة من القيروان التى بناها عقبة بن نافع والتى كانت اذ ذاك ابهى الحواضر الاسلامية فى افريقيا الشمالية

وكان من بين هؤلاء ادباء وتجار ومزارعون مهرة ما لبثوا أن نشروا أفكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطورية طبعت مختلف مظاهر الحياة المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به فى مجتمعاتهم واقتصادياتهم ، نعم ظهرت نواة مجتمع بورجوازى فى عدوة القيروانيين الذين فتحوا قيسارية ودكاكين تجارية

---

(1) كما ذكره طيراس فى تاريخه وذكر دوزى فى تاريخ المسلمين باسبانيا ان هذا العدد بلغ ثمانية آلاف عائلة (ص301) .

وضربت اول دراهم مغربية عام 185 هـ

وما زال متحف كاركوف بروسيا يحتفظ بدرهم منها كما يوجد في المكتبة الوطنية بباريس درهم ادريسي ءاخر يرجع عهده الى عام 189 هـ

وقد عثر في وليلي عام 1952 على 231 درهما فضيا ودينار ذهبي وكلها نقود أموية شرقية كما عثر على دراهم أموية يرجع عهدها الى ما بين 79 و 125 وقد لعب الدرهم اذ ذاك دورا مهما في تجارة اوربا نحوا من أربعة قرون حيث ظل العملة الوحيدة

وفي هذه الحاضرة الجديدة تجمع الف من التجار فيهم المسلم والمسيحي واليهودي تنافسوا في جلب البدو لاقتناء بضائعهم المتنوعة وكانت هناك حواضر أخرى مثل اصيلا والبصرة التي هدمها ابو الفتوح صاحب افريقية من قبل العزيز بالله عام 368 » وكانت تعرف ببصرة الكتان « لانهم كانوا يتبايعون في بدء أمرها أكثر تجاراتهم بالكتان » (المغرب ج 2 ص 133 و 330)

وقد تمخض هذا الاشعاع الحضاري عن نزوع الى الاستقرار لدى بعض القبائل الرحالة وبذلك اتسم الاقتصاد نفسه بشيء من الاستقـرار وظلت الصحـراء مسرحـا للرعاة الرحالين الذين يتعيشون من تربية السوائم ومن تجارة القوافل بين الواحات وأطـــراف الصحـــاري .

وبعد انحلال المملكة الادريسية استمر الامراء الادارسة من الشمال الى الجنوب في اقامة أو توسيع حواضر صغرى على نسق فاس نشرت حولها تدريجياأسباب الحضارة الاسلامية مثل أصيلا وقصر كتامة أو قصر عبد الكريم ومدينة جنيارة (قرب فاس) وتيكيساس وتيطاون التي ما لبث الادارسة أن هدموها .

وقد أكد الاستاذ طيراس ان أعمال الري التي هي ضرورية لكل ازدهار فلاحي ولكل تطور حضري كانت من أهم أعمال الاسر المالكة المسلمة ويظهر أن العهد الادريسي لم يلحق المغرب اثناءه ارهاق وقد وصف ابن حوقل ثراء المغاربة الوافرفيذلكالعصر.

وفي عهد بني عامر وبني زيري اتسعت شبكة نفوذ الحضارة الاندلسية فبلغ اشعاعها جبال فازاز في قلب الاطلس حيث هاجر بعض القرطبيين .

وكانت سجلماسة مركزا تجاريا تتوارد عليه القوافل من البصرة والكوفة وبغداد كما كانت تصل الى تافيلالت – كما يقول جورج مارسي – قوافل مدينة تلمسان التي تنصب عليها افواج التجار المسيحيين والمسلمين

وقد أكد الجغرافي ابن خرداذ به في القرن الثالث أن التجار الصقالبة الذين كانوا ينتقلون في جميع مناطق العالم كانوا يصلون الى السوس الادنى عـن طريـق طنجة ومن هناك يتوجهون نحو افريقية ومصر .

وفي شرق المغرب كانت وجدة التى أسسها زيرى بن عطية واتخذها عاصمة له محاطة بالحدائق والغابات ومنها أرسل ابن عطية الى الحاجب ابن أبي عامر الهدايا الثمينة التى تحتوى على رقيق المنسوج وذكي العطر وتمر نادر الوجود على قدر الخيار »

وفي ايغلي حاضرة سوس كان قصب السكر موفورا حيث حدثنا البكرى أن السكر كان يباع مثقالين للقنطار اذ بربع درهم كان الناس يحملون منه ما يشاءون .

وهكذا يتجلى لنا أن المغرب عرف في القرون الاربعة الاولى للهجرة الوفرة والثراء والطمانينة النسبية .

وقد آكد طيراس أن وجود بعض الضيع منتشرة هنا وهناك وانتشار السكان يدلان على ان المغرب كان يتمتع بالامن الكافي

فعند ما استولى المرابطون على الحكم وجدوا اذن المغرب وفير الموارد هادئا هدوءا نسبيا ولكنهم دعموا وحدة المغرب ووسعوا رقعته وبدأوا احتلال الاندلس الذى امتد منذ ذلك نحوا من ثلاثة قرون وكان للتبادل المغربي الاندلسي أثناءه أثره الفعال في تكييف الاقتصاد الوطني وتوسيع موارده ومصادره في دائرة الاشعاع العام المتبادل .

وقد شجعوا — رغم انبثاقهم من قلب الصحراء — على الاستقـرار الحضرى وبنوا مدينة مراكش على بعد نحو ثلاثين كيلومتر من أغمات التى كانت مركزا لتموين مجموع الصحراء كما ساهموا في ازدهار فاس وبالرغم عن الاضطرابات العارضة التى تخللت الثورة الصنهاجية « مالبث المغرب المرابطي ان استعاد هدوءه وأصبح كما يقول طيراس مزدهرا غنيا » —

وقد اتسعت رقعة المغرب من جديد فبلغت طرابلس أيام الموحدين واكتملت بذلك وحدة المغرب والاندلس الى ابعد الحدود ومسحت الاراضى الافريقية دعما للتنظيم الجبائى حتى بلغت مداخيل الخراج « وقر 150 بغلا هذا في افريقية وحدها خلا بجاية واعمالها وتلمسان وأعمالها والمغرب » (المعجب ص 155) ولم تكد تمر ثلاثون سنة على اعتلاء عبد المومن اريكه الملك حتى « كانت منجزاته تثير الاعجاب » وعمت الرفاهية مجموع البلاد كما يقول طيراس الذى آكد أيضا ان مدن المغرب بلغت من الازدهار ما لم يسبق لها أن بلغته من قبل اما في الاندلس فان النظام الذى أقره الموحدون في مجموع البلاد قد جعل حدا — حسبما اوضح ذلك اندرى جوليان في تاريخ افريقيا الشماليـة — للفوضى المالية التى كان يتخبط فيها ملوك الطوائف وقد شجع الموحدون الفلاحة التى كانت ضيع المنارة التجريبية (1) تنم عن ازدهارها حتى وصفها رحالة انجليزى زار

---

1) ولما ولى محمد بن واجاج في أول ايام الموحدين بلاد المغرب غرس بحيرات فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع الحمل بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيـرة تـازة بـ 65 ألف دينار (الروض الهتون ص 3) .

مراكش عام 1741 بانها أجمل بقعة في افريقيا (دوكاستر) وازدهرت الصناعة في عهدهم وأصبحت سبتة في طليعة مراكز انتاج الورق الذي لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة الشهير وقد أحصيت في فاس وحدها زمن المنصور والناصر الموحديين 3094 من أطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 816 للصباغة و 12 معملا لتسبيك الحديد والنحاس و 11 معملا للزجاج و 135 مصنعا للجير و 1170 فرنا للجير و 400 معمل لصنع الكاغد (1) علاوة على المطاحن والمعاصر ومعامل الحرف التقليدية وكان المغرب يستغل اذ ذاك قسطا من ثروته المعدنية مثل معادن الحديد الموجودة بين سلا ومراكش ومعادن الفضة قرب مكناس وفي سوس حيث « النحاس والتوتية التي يصبغ بها النحاس الاحمر فيصير أصفر » (المعجب ص 224)

وفي نفس الوقت أمست مراسي المملكة مراكز لحركة تجارية قوية ومبادلات مع بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وقد أكد اندري أن المسلمين الذين كانوا حينذاك أول من نظم أساليبهم التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية قد طوروا انظمتهم التي اقتبس منها المسيحيون » وكانت أربعمائة قطعة من الاسطول الموحدي الذي كان أول اسطول في المتوسط حسب (أندري جوليان) تمخر عباب المتوسط بدون انقطاع بين تونس ووهران وعاصمة الجزائر لحماية السواحل .

وقد تضاعف التبادل بين المغرب وتونس فتفتقت مظاهر الحضارة ومراسم العمارة والاساليب الصناعية وبنيت بين الرباط وسلا قنطرة من الحجارة والخشب ومقصورة في مسجد بمراكش انبهر الناس لاساليبها الكانيكية كما اقيمت قنوات الري على يد مهندسين اندلسيين هذا علاوة على الجهاز الاجتماعي النادر المثال مثل مارستان مراكش المجهز بالاشجار والبيوت المرحة والفرش والاطعمة والملبوسات والصيادلة ثم الاطباء والاشربة والادهان والاكحال (المعجب ص 177)

وقد ازدهرت حركة البناء والفن المعماري لاسيما في عهد المنصور حيث تم بناء الرباط ومنارات حسان والكتبية واشبيلية وغيرها من الاعمال الكبرى وقد أشار صاحب المعجب الى ما امتاز به هذا العهد من كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معايش ولم ير أهل المغرب أياما قط مثلها واستمر هذا صدرا من أيام أبي يوسف » (ص 156) ولكن بعد المنصور توقفت الحركة الاقتصادية ومنها حركة البناء التي شلت نحو القرن لا سيما بعد وقعة العقاب التي انهزم فيها المغرب واندحرت جيوشه في الاندلس فكان ذلك نذير انهيار للدولة الموحدية وكان مما حدا المرينيين الى دخول المغرب ما أصابها بعد غزوة العقاب حيث « اقفرت البلاد » التي ظلت مع ذلك جذابة « بخصبها ونقاء هوائها وسعة مسارحها ومراعيها وعذوبة مياهيها وكثرة انهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها » (الذخيرة السنية ص 24) ولم تكن لتقضي عليها أزمة عابرة فقد

---

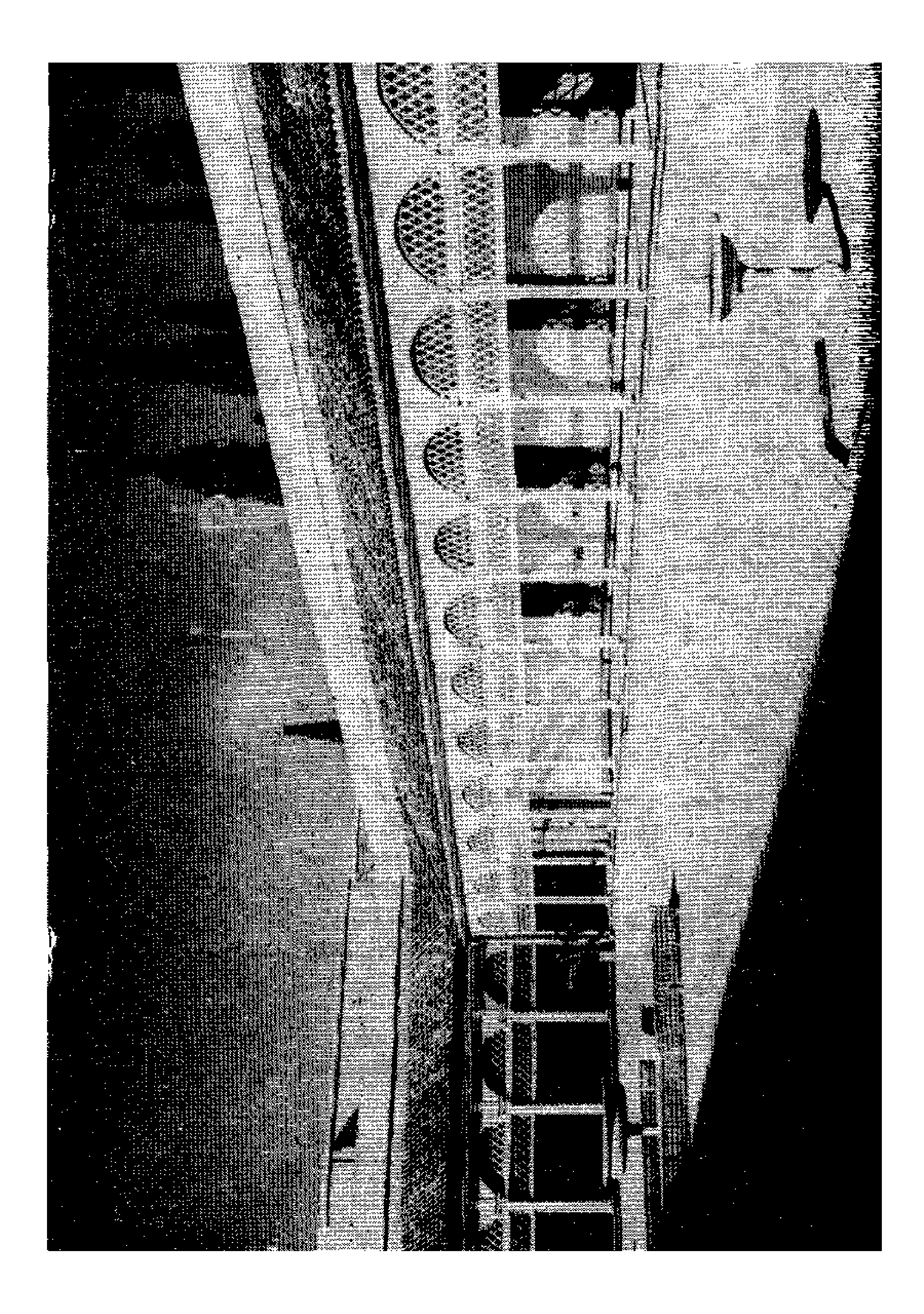
1) زهرة الآس ص 33 .

وجد المرينيون مغربا وفير السكان غنيا برجاله وموارده تذكيه حركة اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسمها الرقيق ولعل من أبرز مظاهر الازدهار الاقتصادى قوة النقود الاقتنائية لان العملة هى معيار ثراء الدولة فقد لاحظ ابن بطوطة ان القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة أضعافها بمصر مثلا واتجهت حركة البناء فى المغرب اتجاها اجتماعيا حيث تزايد عدد المارستانات واسست المدارس ورصدت الاوقاف الوافرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصر أبى الحسن المرينى كان نهاية عهد الازدهار وقد كان ابو الحسن على حد تعبير اندرى جوليان — أقوى ملك فى القرن الرابع عشر الميلادى »

لقد اندحر أبو الحسن فى معركة طريف وبدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وتقلص المجهود الاقتصادى بسبب طغيان عوامل الفتنة ومقتضيات التسلح لمواجهة الخطر الداهم وقد عرف المغرب أيام أبى عنان المرينى أزمة اقتصادية كادت تؤدى بحياة الاسرة المالكة وتفاحش الغلاء بسبب تضاؤل مواد العيش حتى ارتفعت قيمة منزل للسكنى بفاس الى ألف دينار وهو مبلغ باهظ فى ذلك العصر ولكن السلطان قاوم الازمة واسعف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية حيث وزع عليهم مجانا الاراضى الفلاحية وأزواج البقر لحرثها .

وفى الوقت الذى احتدم الصراع بين المرينيين والسعديين بدأ البرتغاليون ينزلون ضرباتهم بالسواحل المغربية فسيطروا على اكادير ومنها راقبوا مجموع الحركة التجارية فى الجنوب واحتلوا كلا من أنفا واصيلا حيث ابتزوا خزينة أموال الوطاسيين وشرع الاسبان فى نفس الوقت فى اعتداءاتهم على مليلية وحجرة بادس وعلى الشمال عموما فتقلص النشاط الاقتصادى على اثر اختلال الامن وانخراق طرق المواصلات وتوقف معظم المزارعين عن فلح الاراضى بعد أن هبوا تلقائيا وبدون بطء » — كما يقول طيراس — للصمود فى وجه التسرب الاجنبى وقد شوهد تحت أسوار سبتة مجاهدون تواردوا من أقصى الجنوب لنجدة الوطن المهدد .

وهكذا اضطر المغرب الى تحمل أعباء حرب دفاعية أثرت فى اقتصادياته التى لم تستعد ازدهارها نسبيا الا بعد أن استأصل السعديون موقتا الخطر البرتغالى الداهم فعندما اعتلى الشرفاء أريكة العرش وجدوا الاقتصاد المغربى مضعضعا بسبب الاحتلال والفوضى الناتجين عن تسرب البرتغال الى المراكز المهمة فبادروا بتحرير آكادير وأقروا عدالة اجتماعية نسبية بالرجوع الى المساواة والاعتدال فى الجبايات وعمد السلطان السعدى للتخفيف عن الشعب المغربى المرهق الى احتكار بعض المواد للدولة من أجل تسديد الخصاص الذى أسفرت عنه ضآلة مداخيل «النائبة» لا سيما تعبئة جيش قوى استلزم من الدولة نفقات باهظة وحتى قبل هذا العصر ببضعة عقود لم يكن التوازن يتحقق بين مداخيل الدولة ومصاريفها الا بشق الانفس وذلك بالرغم عن موارد الدولة



التي بلغت في احدى السنوات 26 مليون فرنك (1) حسب قيمة الصرف في القرن الماضي (انما اذا اعتبرنا الصرف قبل الحرب العالمية الاولى فيجب أن نضاعف المبلغ مائتي ضعف بحيث يصير مجموع الموارد 5,200 مليون فرنك)

ولكن انتصار المغرب في معركة وادى المخازن ازاح الخطر وأرجع للبلاد سمعتها في الخارج وجلب لصندوق الدولة من مبالغ الفداء مع ذهب السودان سيلا فياضا من الخيرات وأصبحت كثيرمن دول أوروباتخطب ود المغرب وترسل سفراءها لتهنئة المنصور السعدى وكان المغرب على وشك الاندراج فى سلك الدول العظمى باوربا لولا أن المنية انشبت اظفارها يوم المعركة الكبرى فى السلطان مولاى عبد المالك الذى « كان يتكلم اللغة الاسبانية باناقة ويحرر بها بأسلوب صحيح ويحذق الايطالية والتركية» (حسبما رواه دوشافروبيير فى كتابه عن تاريخ المغرب ص 316)

وأضافت الدولة الى هذه الثروة والى موارد المحتكرات الصناعية مداخيل مزارع قصب السكر التىاتسع نطاقها فى الجنوب وأصبحت تنافس المزارع التى غرسها مهاجرون غرناطيون فى ناحية فاس حيث تكثر أشجار التوت التى اعتنى هؤلاء الاندلسيون بها توفيرا للاوراق التي يتغذى منها دود القز .

وبالقضاء على النفوذ البرتغالى استرجع الجنوب ازدهاره الاقتصادى وثروته التجارية وقد حكى لنا الرحالة مارمول عن سوق جزولة السنوى الذى كان التجار موزعين فيه على أجنحة مختلفة تبعا لنوع البضاعة وحيث كانت تسود الحرية فى المعاملات وحسن النظام بين نحو العشرة آلاف من التجار الواردين من السودان وغير السودان .

ومما زاد في ازدهار تجارة المغرب الخارجية ان العملة كانت — حسبما أكد ذلك الاستاذ طيراس — من نوع جيد قار « وللدينار الذهبى المغربى نفاق لدى التجار الانجليز الذين اغتنموا هزيمة البرتغاليين لبيع منسوجاتهم للمغرب بالذهب ومبادلتها كذلك بالسكر والجلود المدبوغة وملح البارود ومما يدل على ضخامة انتاج المغرب من السكر كون الانجليز انفسهم كانوا يستوردونه من المغرب وان المنصور الذهبى كان يستورد من ايطاليا كميات وفيرة من الرمر ويدفع فى مقابلها السكر وزنا بوزن

غير أن تجارة المغرب الخارجية انتظمت بالاخص مع الاقاليم المتحدة (وهى هولندا الحالية) لا سيما بعد معاهدة 1610 ويقال بان المنصور اقترح على هولندا اذ ذاك منحها

---

(1) ذكر كودار في تاريخه ان موارد المغرب كانت تتراوح بين 15 و 25 مليون فرنك (ص 162)

قرضا قدره مليون ونصف دينار (1) (أى نحو 18 مليون فرنك بصرف ذلك العصر و 600 ، 3 مليون بصرف 1956) وهو مبلغ باهظ كنا نرتاب في صحته لولا أن المنصور كان ينتهج هذه السياسة ازاء أوربا حتى أنه منح الدون انطونيو الامير الطامع في عرش البرتغال سلفا قدره 000 ر 400 ليرة (2)

أما فرنسا فان مبادلاتها مع المغرب لم تنتظم الابعد سنة 1577 ولكنها لبثت العلائق ان فترت بين البلدين عام 1616 على اثر اختلاس قنصل فرنسى لعدة ملايين من المجوهرات والكتب القيمة التي ائتمنها عنده المولى زيدان (المؤرخ أندرى جوليان)

وقد بعث المولى زيدان هذا - تقوية لمبادلات المغرب مع أوربا - عملاء قاموا خلال الاقطار الاوربية بدعاية واسعة لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه (النحاس والرصاص والحديد والكبريت وغيرها) ولكنه عمد في نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاحمة الاجنبية فحظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية (3)

وكانت أهم المراسى اذ ذاك هي آسفي وأكادير وماسة أما ميناء سلا فانه لم يزدهر الا فيما بعد حيث بقي مدة من قرن أكثر مراكز المغرب نشاطا

وقد أمكن للمغرب ان يصدر الى انجلترا في عهد محمد الشيخ الثانى نسيجا غليظا مصنوعا من الوبر وكذلك الذهب والزيوت والسكر في مقابل الحديد والرصاص والقصدير وكانت تبدو من انجلترا بوادر اطماع بالمغرب ومن جملة ما كانت ترنو الى استغلاله ملاحات الرباط وسلا التى كانوا يعتبرونها كما أورد ذلك دوكاسترفي وثائقه كافية لاستهلاك مجموع البلاد البريطانية وكانت الاطماع الانجليزية تثير اطماع دول أخرى ويتمخض التنافس بين الدول عن تشجيع بعض رؤوس الفتنة من المغاربة على اشاعة القلاقل والفوضى للاصطياد في الماء العكر وكان من نتائج ذلك تقلص المبادلات الداخلية بين الشمال الذى كان ينتج المنسوجات والكتان والزيوت والخزف ومواد الخياطة والجنوب الذى كان يبيع المواد الخام وقد شوهدت خلال عدة شهور قوافل من الجمال (ما بين 1000 و 500 1 جمل) تعبر وادى ابى رقراق يوميا حاملة قموح الغرب

---

(1) - وثائق دوكاستر ج 1 ص 528

(2) ايد المنصور بايعاز من ملكة انجلترا - ترشيح انطونيو لعرش البرتغال واسلفه 000 400 جنيه ضمانتها استرهان الامير كريستوف نجل انطونيو في القصر السعدى حيث مكث ثلاث سنين ناعم البال موفور الحال ثم رده في الاخير لوالده بعد استشفاع اليزابيت دوكاستر (ج 1 ص 3)

(3) - في عام 1617 اصدر مولاى زيدان الى هولندا ستة ءالاف من الجلد البقرى وستة وثلاثين صندوقا من السكر ثلاثمائة قنطار من العود الذى يصبغ به

وفي عام 1625 250 17 رطلا من النحاس

الى الجنوب (كاييى فى تاريخ الرباط ص 54)

غير ان العدوان الاجنبى على المغرب فى اواخر السعديين استفحل واقتطع الانجليز والاسبان والبرتغاليون لانفسهم من تراب المغرب مراكز زادت فى الاضطراب الداخلى والفتور الاقتصادى .

وكان اول عمل قام به مولاى رشيد ، هو القضاء على النفود الانجليزى فى الشمال باستئصال شأفة الخضر غيلان الذى كان صنيعة الانجليز ثم حرر المولى اسماعيل المراسى التى كان يحتلها العدو وسعى فى تحقيق الوحدة بين اجزاء البلاد وقد أكد اندرى جوليان ان عناية المولى اسماعيل بتقوية نشاط المغرب الاقتصادى لم يكن اقل من اهتمامه بالذب عن حوزة البلاد وقد قال قنصل فرنسى عنه بانه كان يسعى فى تقوية رعاياه وتنمية ثرواتهم عن طريق التجارة التى كان يفضلها على القرصنة

وما كادت تمر سنتان على تحرير اصيلا عام 1691 (يقول روبير ريكار بأن اصيلا لم تقع فى قبضة أيةدولة أجنبية منذ1589 وهو خلاف المتعارف — انظر هسبريس ج 33 ص 201) حتى استأنف المغرب مبادلاته مع أوربا-حسب رواية «دوسان اولون» فاصبحت فاس مخزناعاما لمجموع المغرب تمد أصيلا من سلا وتطوان ويجلب المغرب مختلف البضائع من اسبانيا وانجلترا وهولندا وايطاليا ، وكانت الواجبات الجمركية المفروضة على الواردات والصادرات تبلغ احيانا 25 فى المائة ، وتلى مدينة فاس فى الاهمية مدن أربع،توزعت فيما بينها النشاط التجارى وهى مراكش وتارودانت وايليغ ومدينة مكناس التى كانت اول سوق للحبوب بالمغرب

وقد قضى سيدى محمد بن عبد الله على التهريب فى الجنوب بعد احتلال البريجة (الجديدة) وتأسيس الصويرة واضطر — ازاء دسائس بعض دول أوربا اللاتينية — الى التعامل مع دول بروتستانية مثل انجلترة والسويد والدنمارك التىعقد معها معاهدات تجارة وصداقة كما عقد — قبل وفاته ببضع سنوات — معاهدة تجارة وملاحة لمدة خمسين سنة مع الولايات المتحدة وهذه المعاهدة المؤرخة بـ 16 يوليوز — 1786 قد جددت عام 1836

وقد عرف المغرب ايام سيدى محمد بن عبد الله عهد رفاهية وسلام وكان للدولة ثروة موفورة حيث بلغت موارد مكوس فاس سنويا 500 الف مثقال اى 2.500.000 فرنك بصرف ذلك الوقت (سوردون فى كتابه عن افريقيا الشمالية ص 241) وقد ذكر صاحب درة السلوك ان السلطان تصدق خلال أزمةالجفاف التى استمرت خمس سنوات بـ 500 مليون دينار وهو مبلغ باهظ نشك فى صحته وان كان هنالك ما يؤكد أن الدولة وزعت اذ ذاك على المدن والبوادى الاقوات ومختلف الاعانات المادية ، وقد عمد السلطان ضمانة لتموين البلاد بالمواد الحيوية — الى منح قروض لدور تجارية تكفلت بجلب تلك المواد من الخارج وبيعها بثمن بخس ، وقد ورد من جهة اخرى أن مولاى احمد الذهبى

ووزع غداةاعتلائه اريكة العرش 200.000 دينار ذهبي اى نحو 260 مليون فرنك وقد وجد في بيت المال أزيد من مائتي مليون .

وقد ظل المغرب غنيا مما حدا مولاى اسماعيل الى الغاء المكوس والجبايات المفروضة على البضائع وكانت هذه تكفي وحدها لتسديد نفقات الدولة ، وقد عدل السلطان حتى عن احتكار التجارة الخارجية ولكنه أسس الديوانات في المراسي المفتوحة وأقام عليها أمناء لمراقبة المداخيل الجمركية وكان المغرب يصدر الى اوربا فائض منتوجاته ففي عام 1260 أصدر عن طريق الصويرة وحدها 75.000 طن من القمح والقطاني وقد قدر مبلغ رواج هذا الميناء الفتي عام 1267 هـ بستة ملايين فرنك واستمر نشاطه الى عام 1911 حيث زارته 462 باخرة واصدر المغرب عن طريقه 38000 طن من المنتوجات المغربية في مقابل واردات لا تعدو حمولتها 12.000 طن اى أقل من ثلث الصادرات وفي سنة وفاة السلطان مولاى عبد الرحمن اى منذ قرن كان في المغرب – حسبما ورد في كتاب قضية المغرب لم . لامار تنيير الصادر في نفس السنة أى عام1859) 48مليون رأس من الغنم و 6 ملايين من البقر . (1)

اما الصناعة ففي أواخر أيام السلطان مولاى عبد الرحمن كانت الرباط وسلا تحتلان الدرجة الثالثة في ضخامة الانتاج بعد فاس ومراكش وقد انتجتا معا 840 زربية صدر ثلثها الى الخارج و63.200حايك و460.800سبنية ومآت «الحرق» من المنسوجات وكانت المنتجات المغربية مشهورة في أوربا بمتانتها وجمالها وكان بالمدينتين علاوة على ذلك 150 معملا « للبلغة » و40دارا للدباغة و 10 دور للصباغة وثلاث دور لضرب السكة تقوم بتذويب تسعة قناطر من المواد الاولية كل يوم وكان نظام الحناطي يعمل في اطار من الحرية الكاملة ولم يفسد ـ حسب اعتراف م باليس (2) الا بالاحتكاك مع نظريات اوربا وكان المخزن يحترم حرية التجارة وقد قام الاستاذ ماسينيون عام 1924 بتحقيق حول «الحناطي» في فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه ان عدد رجال الحرب في هذه المدن يعادل مبدئيا نصف عدد السكان في نفس المدن والفتور الذى لحق الصناعة الاهلية هو من الاسباب التي تمخضت عنها البطالة بالاضافة الى هجرة البدويين الى الحواضر وتكاثر مدن القصدير الناتجين عن سياسة الافقار التي نهجتها الحماية في البادية على الخصوص

اما الفلاحة فالظاهر انها كانت مزدهرة والشيء الذى يلاحظ بصورة عامة ان الثروة الفلاحية من محاصيل وغابات على الخصوص كانت في مختلف العصور اوفر منها

---

1) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم 49 و 50 .

2) كان المغرب يملك في عهد مولاى عبد الرحمن 40 مليون رأس غنم وما بين 10 و 12 مليون معز و 5 الى 6 ملايين رأس بقر وخمسة ملايين من الجمال والافراس والحمير والبغال (كودار ص 188) .

اليوم فقد وصف لنا مارمول غابات انمحى اثرها اليوم ووصف لنا الحسن ابن الـوزان المعروف بليون الافريقي بحيرة الجبل الاخضر حيث كان هو نفسه يصطاد السمك وقـد غاضت هذه البحيرة الآن .

وكانت حدائق أكدال بمراكش عبارة عن ضيع تجريبية حيث تغرس أنواع شتى من الازهار والرياحين المجلوبة من أوربا .

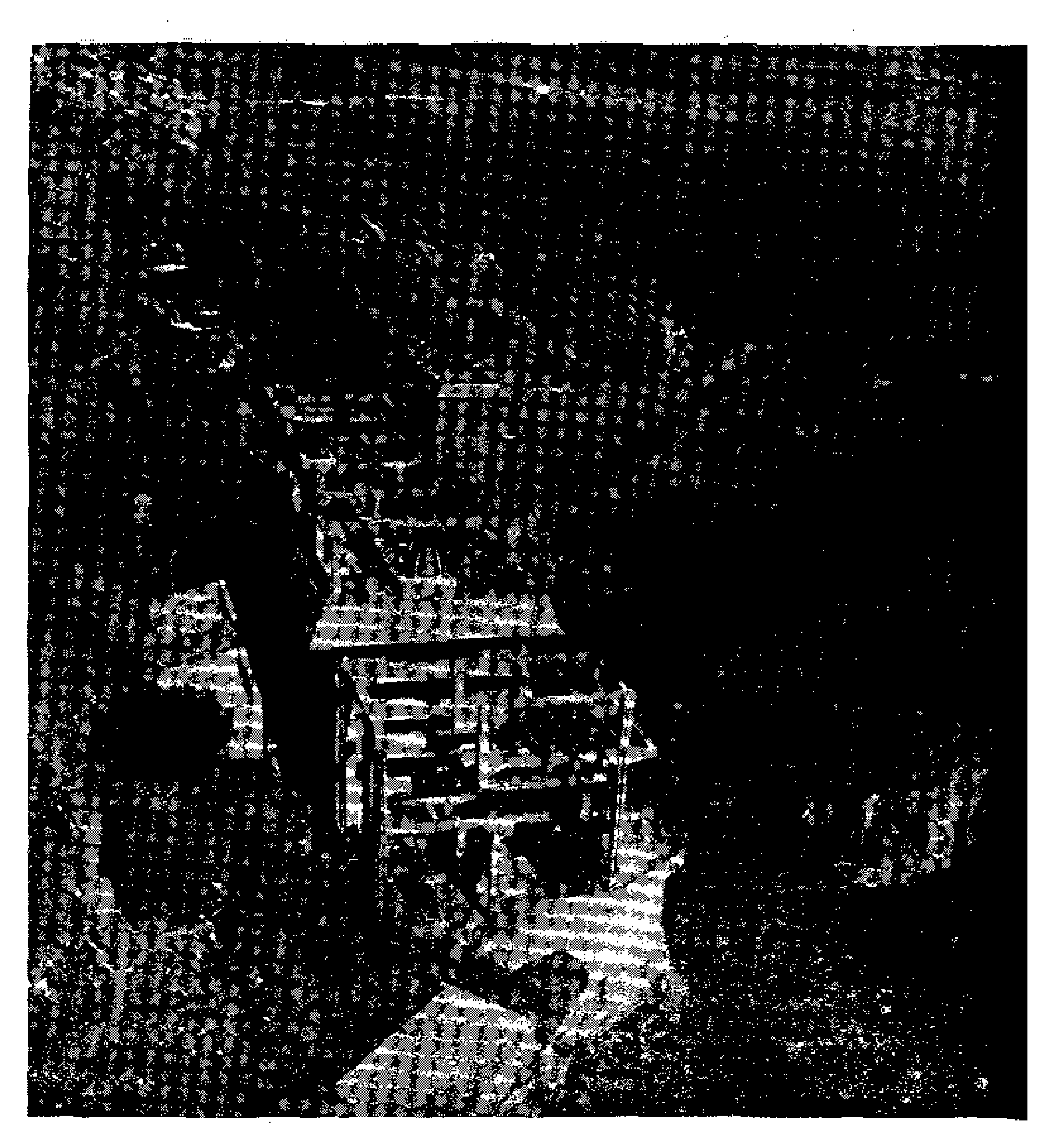
وكان القطن يغرس في النواحي التي لاتعلو كثيرا عن سطح البحر وحول المـدن الكبرى منذ اوائل العصور الوسطى بل وحتى قبل الفتح الاسلامي ولكن فـي عـام 1866 كتب نائب القنصل الفرنسي بالدار البيضاء تيودور جيلبير تقريرا (1) ذكر فيه ان انجلترا شجعت في عام 1864 رعاياها القاطنين بالمغرب على زرع القطن في ناحية الجديدة فانتجت دكالة وحدها عام 1865 نحو 400 قنطار قيمتها 100.000 فرنك ذهبيـة اى ازيد من 20 مليون فرنك بالصرف الحالى وهو مبلغ لا بأس به اذا قورن بقيمة مجموع صادرات المغرب التى بلغت فى نفس الوقت 22 مليون فرنك ذهبية اى 4.400 مليون بالصرف الحالى وكان فى هذا القطن المغربى نوعان معروفان فى اوربا « سي — ايسلاند » لهما سدى حريرى طويل من الطراز الامريكى الذى تقبل عليه اوربا عظيـم الاقبـال وكذلك أورليان الجديدة وكانت المصانع المحلية هى التى تنقى القطن الخام من الحبوب بواسطة الآلات .

وكان الانتاج الفلاحي يقوى ويضعف تبعا للمؤثرات الجوية كما هو الحال اليـوم ومن جملة النكبات التى كانت تتوالى على المغرب علاوة عن الجفاف غارات الجراد غيـر ان الحكومة المغربية كانت تقاومها بوسائلها البدائية فتدعو السكان الى جمع بيض الجراد وتشتريه منهم بثلاثة ريالات للقنطار ثم تقذف به فى البحر على ان البدو كانوا يحفرون خنادق حول ضيعاتهم لصد هجوم الجنادب وكان ءاخرون يحيطون هذه الخنادق بصفائح من القصدير كحافز وقائى من هذا الهجوم

وقد اعتنى السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بزراعة قصب السكر وحاول استقدام فنيين اوربيين فأبوا فجلب اختصاصيين مصريين لمباشرة تصفية السكر فى مصنع اكدال بمراكش (الاتحاف ج3 ص 556)ومعلوم ان سيدى محمد بن عبد الرحمن كان يهتم عند ما كان خليفة لوالده بمراكش بترقية أساليب الفلاحة على وجه العموم فجلب آلة لدرس الزرع ذات اربعة افراس وعدة ءالات اخرى كما جدد حفـر قنـوات السقي وحاول حفر ءابار على الطريقة العصرية وتاسست مصانع وطنية وبالاخص مصانع النسيج وقد احال الامير بعض اراضى الرحمانة الى جنان مزهرة

ولكن منذ احتلال فرنسا للجزائر بدأت النكبات تترى على المغرب الـذى انهـزم فى معركة ايسلي ، ثم فى حرب تطوان فاجبر على امضاء معاهدات لم تستفد منها سوى

1) نفس المصدر رقم 51 .



السدود وتوليد الكهربـاء

أوربا وعلى اداء غرامات فادحة(نحو120مليون بسيطة لاسبانيا و 50الف جنيه لانجلترا) وهذه الدبلوماسية المالية – كما يسميها اندرى جوليان – هى التى حدت بعض الدول التى كانت تعمل على التعجيل بانهيار المغرب الاقتصادى للسيطرة عليه سياسيا – الى الضغط عليه لمنحه قروضا متوالية(62 مليون ونصف مليون عام1904 و 100 مليون عام 1907)وتسليمه كمصرمكتوف الايدى الى دول جشعة وكان المغرب يتوفر لحد الآن على «مالية وفيرة » و « حساب منتظم » كما يقول جوليان ـ فارتهن مستقبله وتوالت الدسائس والاتفاقات السرية التى تمخضت عن ازمة خطيرة ادت الى اجبار المغرب على قبول الحماية.

وسياسة التصنيع التى بدأ المغرب ينهجها الآن تبشر بالاضافة الى برنامج الانعاش الوطنى بكل خير فى هذا المرفق الحيوى من الاقتصاد المغربى .

فاستعمار المغرب الاقتصادى بدأ اذن قبل الاستعمار السياسى وقد استقل المغرب الآن ولكنه ما زال لم يتجرد من رواسب الاستعمار الاقتصادى فالواجب يقضى بمضاعفة الجهود من اجل ابراز ذاتيتنا الاقتصادية كنتيجة محتومة لاسترجاعنا للذاتية السياسية: ولكن ذلك لا يتم ولن يتم الا اذا نهجنا سياسة اكتفائية فى الكماليات واشباه الكماليات كما وقع فى بعض دول آسيا – ووسعنا نطاق التصنيع مع ترقية الاساليب فى الحرف التى نتج عن انهيارها ظهور جيش من العاطلين الذين يتعين شغل القسط البدوى منهم فى استغلال الاراضى الزراعية الصالحة فمقدراتنا موفورة وبلاد غنية كالمغرب من شأنها ان تصبح جنة وان يرتفع مستوى عيش مجموع سكانها اذا عرفت كيف تتقشف سنوات لتعيش فى الرفاهية دهورا .



الفصل السابع :

الصناعة التقليدية

يلذ لنا ـ والمغرب الجديد ساع في تطوير الصناعة التقليدية وانعاشها — ان نعطي صورة عن ازدهار هذه الصناعة في مختلف العصور وعن مصادر اقتباسها ومدى تغلغلها في شتى الاوساط الاجتماعية التي كانت تجد فيها موردا خصبا للعيش)

ذكر الحسن بن محمد الوزان في وصف افريقيا الذى حلله ماسينيون في كتابه « المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر الميلادى » المطبوع عام 1906) ان المغرب كان ينقسم في عصره من الوجهة الصناعية الى خمس نواح

1) ناحية فاس التى تشمل حتى الريف وتوجد بهذه الناحية الانسجة الغليظة المصنوعة بالاخص فى الجبال المجاورة فى الهبط والريف وتازة وثياب الصوف من زرهون وبنى يازغة التى هى فى مثل ليونة الحرير زد على ذلك الاسلحة والسكاكين والسيوف المصنوعة بمدينة فاس بالحديد المجلوب من مناجم بنى سعيد المجاورة او الاعوان او الجنوب) والفحم والمصنوعات الخشبية (خشب الريف) والخزف (من مزدغة) والصابون (وهو من اختصاصات بنى مزكلدة) ويزرع القنب والكتان في احواز فاس التى تصنع منه الحبال والمنسوجات فتوزعها على جميع أنحاء المغرب

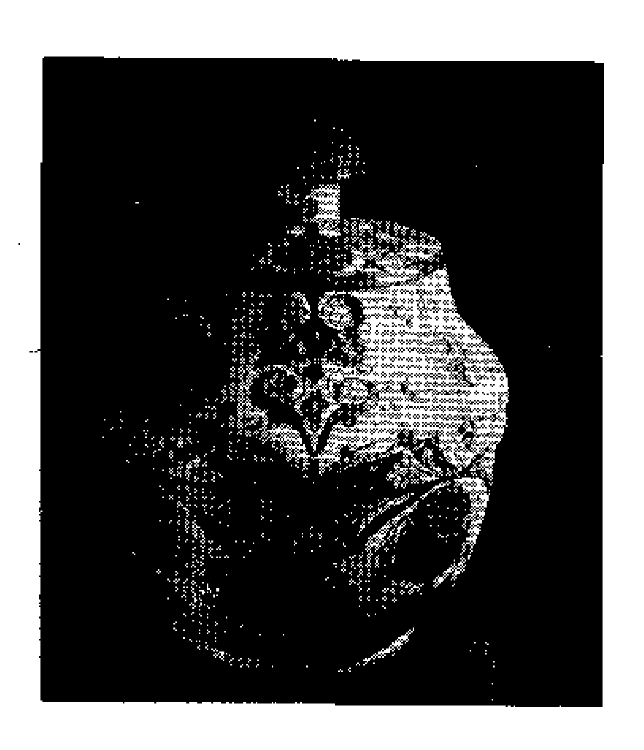
ولكن مدينة فاس تجلب من النواحى النائية الجلود التى تصنع منها أجهزة الفرس والاحذية وانواع التجليد بعد الدباغة كما تجلب النحاس لصنع الاوانى والتوابل التى تركزها من اجل اصدارها الى شمال البلاد ثم الحراير (تربى دودة القز فيأحواز فاس) والقطن لصنع القطنيات (ص 96)

2) ناحية الهبط الساحلية الى حاحة فقد دمرها الغزو البرتغالى فأفل نجمها كعامل صناعى مهم فى القرن العاشر الهجرى فقد كانت ناحية سبتة تصنع أوانى النحاس المنحوتة والمرصعة ـ وتصدرها حتى الى البلاد الايطالية ولكن الحسن الوزان لم يشر الى غير القطنيات فى العرائش والقصر الكبير وسلا حيث تتوافر دكاكين الافاوية وأدوات الخياطة التى تستعملها النساء وفى ناحية تامسنا حيث الاسكافيون والحدادون وصناع الجوارب والصباغون والخزافون وكانت هذه الناحية على وجه العموم

مركزا تجاريا للبرتغال الذين قضوا على مصانعها وصاروا يمدونها بالثياب القطنية والصوفية بعد أن كانت أصواف المدينة (مدينة بوالاعوان ؟) مشهورة وقد ذكر الادريسى أن القطن موجود في تادلا وأشار الحسن الوزان الى وجوده في سلا والعرائش (ماسينيون — ص 88)

وقد زرع القطن بالمغرب فى أرباض كبريات المدن منذ العصور الوسطى وقد شجعت انجلترا رعاياها عام 1864) لزرع القطن فى ناحية الجديدة فبلغ منتوجه عام 1865 أربعمائة قنطار وتأسست فى نفس المكان مصانع لمعالجة هذا القطن الحريرى الشبيه بالقطن الامريكى (النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب رقم 51)

3) ناحية هسكورة وتادلا حيث تركزت الصناعة الاهلية وراء شواهق الاطلس ففى هسكورة تكثر مناسج الصوف والسروج وفى تادلا البرانس السود (المراكشية) والطواكى ومع ازدهار الصناعة فى هذه الناحية كانت تجلب من فاس المنسوجات وادوات الخياطة والسكاكين والجلود بل كانت تادلا تفضل سروج فاس على سروج هسكورة .



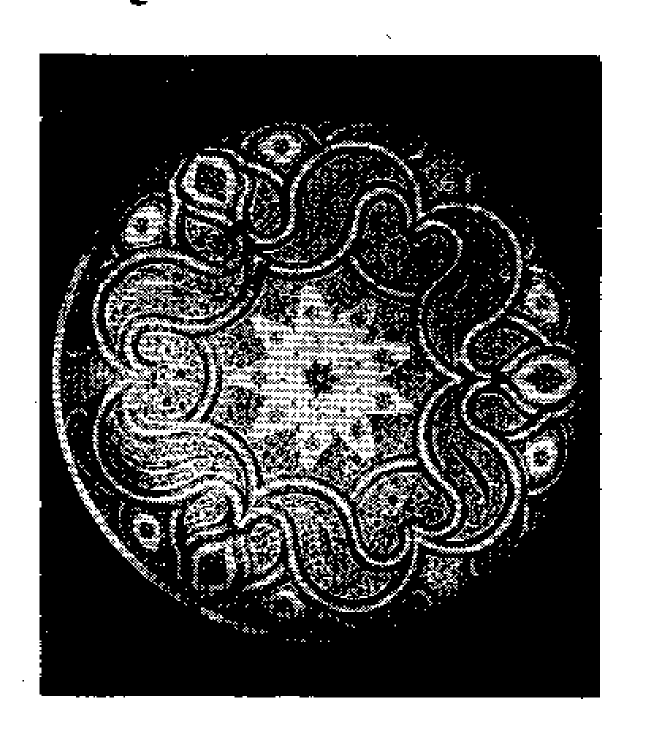
الفخار الفاسى برسومه الملونة الخلابة

4) صقع سوس حيث يصاغ الذهب والفضة وتصنع المواد الجلدية والثياب ولكن البرتغال صارت تنافس المصانع الوطنية بعد احتلال آكادير التى حررها السعديون فى القرن العاشر .

5) الاودية العليا في زيزوكير حيث يستورد السكان مصنوعات فاس اللهم الا ما كان من الحديد والانسجة الصوفية الجميلة التي تصنع فجيج خير أنواعها (نوع ميرينوس الحريري) والجلود المحضرة في تدغة ويصدر السودانيون الى هذه الناحية القطنيات السوداء (ص 96 الى 99) .

ويتبين من هذا العرض أن الصناعة كانت مزدهرة في مختلف نواحي المغرب حتى القاصية منها والبدوية .

وكانت أوجه النشاط تختلف باختلاف الاستعدادات الطبيعية للناحية وتبعا للمؤثرات الاقتصادية العامة التي تتطور أو تتقلص مع العصور .



وعاء من الخزف الازرق منقوش بفاس

ففي خصوص السكر مثلا ذكر البكري (ص 161) (القرن الخامس) أن قصبه كان موجودا في ايكلي قاعدة بلد السوس ومنها يحمل الى جميع أنحاء المغرب ويصنع منه الشيء الكثير حتى صار يباع القنطار منه بمثقالين (1)

ويعالج في نفس المدينة النحاس المسبوك .

(1) كانت مياه وادي سوس قديما تجمع كلها لسقي مزارع قصب السكر في سوس الذي كان هو السوق الاعظم لتجارة السكر في باقي انحاء المغرب وفي السودان (دوكامبوص ص169)

على أن الروح الصناعية وكذلك التجارية كانت سارية فى السوسيين وأهل الجنوب عموما منذ القديم فقد ذكر البكرى أيضا (ص 163) أن أهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب)



غزالة من المعدن منقوشة بأسلاك فضية
(صناعة مكنـاس)

وذكر صاحب المعجم أن مدينة أغمات يدبغ بها جلود تفوق جودة صنعها جلود الدنيا وذكر الادريسى (القرن السادس) (وصف افريقيا ص 43) أن أهل أغمات (أملياء تجار مياسير يدخلون الى بلد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمـآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد) (1)

---

(1) لاحظ دوكامبو (مملكة تنهار ص 123) ان المغرب كان يصدرالى السنغال الاحذية من نوع البلغة والى الجزائر زرابى الرباط والدار البيضاء وحياك وبلاغى فاس علاوة على البغال والافراس وزرابى الرباط مشهورة ، باستقرار الوانها ويصنع منها نحو أربعة آلاف فى السنة تصدر ثلاثة أرباعها الى أوربا وزرابى الدار البيضاء أقل قيمة منها من حيث اللون وذكر دوكامبو فى محل آخر (ص 236) أن عدد مصانع الزرابى فى سلا والرباط خمسون ودور الدبغ 40 ودكاكين صنع البلغة 350 .

وذكرياقوت فى المعجم (القرن السابع) أن لنساء — سجلماسة يد صناعة فى غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق الذى بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر ويعملن منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغنها بأنواع الاصباغ) (ج 5 ص 41)

وكانت الصنائع تؤدى القبالات (أى الضرائب) = قال الادريسى (وصف افريقيا ص 45) = (كانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان (السفنج) والصابون والصفر والمغازل وكانت القبالة على كل شيء يباع فلما ولى المصادمة قطعوا القبالات)

وتعتبر مدينة فاس عاصمة الصناعة التقليدية منذ العصور الاولى وقد وصف الحسن الوزان فى القرن العاشر مصانعها (ماسينيون ص 228) فلاحظ أن بالضفة اليمنى لوادى فاس كانت تقوم مصانع التغذية باستثناء المجزرة) واللباس والبناءبينما كانت صناعة الجلود والمعادن تعالج خارج عدوة الاندلس .

وتجلب للضفة اليسرى المواد المصنوعة بفاس أو خارج فاس فى أهراء وتباع بالمزاد لتجار التفصيل .

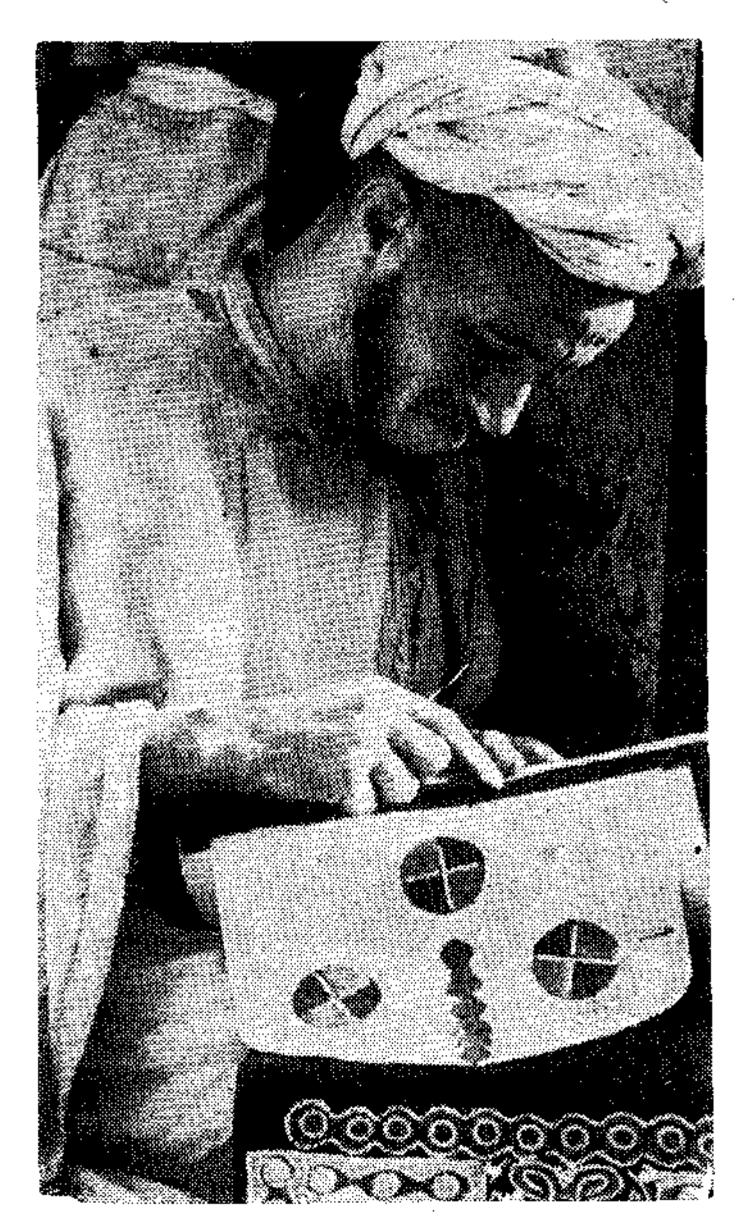
أما الحرف المتوافرة بفاس فقد أعطى مختلف الرحالين والمؤرخين وصفا شاملا عنها فى شتى العصور وهى لا تكاد تقل عنها فى أيام ازدهارها الى العقود الاخيرة من تاريخنا الحديث قبل مزاحمة الصناعة الحديثة لها (راجع ماسينيون من ص 231 الى 234)

وأما الصناعة الفاسية الكبرى فقد كانت متركزة حول قنوات ساقية مصمودة ووادى فاس غربى المدينة وجنوبى غربها وكان بها 520 معملا للنسيج (الدرازة) تستخدم 20.000 عامل و 360 طاحونة لم يبق منها عام 1904 سوى 160 يعمل فيها نفس العدد من العمال والحمالين و50 من دور التصبين (القصارين) زيادة على المائة الموجودة على الوادى قرب بوجلود .

وكان بجانب حارة الجذمى خارج المدينة ربض الكيفان حيث الصفايحية والنجارون والبناءون .

وذكر ياقوت (المتوفى عام 626هـ) فى المعجم (ج 6 ص 331) أن بفاس 600 رحى لا تبطل ليلا ولا نهارا وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها الا غرناطة)

وقد ذكر الجزنائى (زهرة الآس ص 33) أن فى زمن المنصور ومحمد الناصر الموحديين كان عدد الاطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وأفران الخبز 1170 وأحجار عمل الكاغد 400 داخل المدينة ودور الفخارة 180 خارج المدينة)



صناعة الاخراج والقماطر الجلدية بالاطلس
والريف عريقة في القدم

وقال المراكشي في المعجب (القرن السابع)
ما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات وذلك أنها مدينة يحفها الماء (ص 221)

ولعل ذلك راجع لكون فاس كانت مهدا لازدواج الحضارتين الاندلسية والمغربية فقد ذكر دوزى أن ثمانية آلاف عائلة قرطبية (1) هاجرت الى فاس حيث وجدت جالية قيروانية قد سبقتها الى المدينة (ثلاثمائة عائلة) وكان العرب عملة وتجارا بينما كان الاندلسيون يشتغلون بالاعمال الفلاحية (تاريخ مسلمى اسبانيا ص 301) وفى نفس الوقت هاجر خمسة عشر الف قرطبى الى الاسكندرية فاحتلوها ثم أخرجوا منها فاتجهوا الى جزيرة قريطش حيث أسس عمر البلوطى مملكة استمرت الى عام 961 ففتح اليونان الجزيرة (ص301)

ونقل المقرى عن ابن غالب (النفح ج 2ص764) أن أهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة فى المغرب الاقصى مع افريقية فمال أهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار وأحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات ومال أهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها .

ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين أيديهم ومتى دخلوا فى شغل عملوه فى أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد)

(وفى عام 1019 خرجت الوف من أهل الاندلس بفاس وألوف بتلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا أموالهم وهذا فى تلمسان وفاس والذين خرجوا بنواحى تونس سلم اكثرهم وكذلك بتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل منهم جماعة الى قسطنطينية العظمى والى مصر والشام » (نشر المثانى عن النفح ص 101)
وقد ظهر اثر ذلك حتى فى تونس فان جانبا من الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلس نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم الحفصيون(حسن حسنى عبد الوهاب فى رسالة له بالفرنسية)

وقد ذكر المقرى فى النفح (ج 1 ص 104) فى حديثه عن الصناعة فى الاندلس ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم فى نهاية القبح »

وكان النظام الاقتصادى محكما نوعا ما فى الاندلس من ذلك نظام التسعير ومراقبة الاثمان فهذا اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزاران يبيع بأكثر أو دون ماحد له المحتسب فى الورقة (النفح ج 1 ص 203)

ومعلوم ان المحتسب هو الذى كان يسير دواليب الحياة الاقتصادية فى كل مدينة

---

(1) ذكر عبد الملك الوراق ان عدد العرب الوافدين من الاندلس الى عدوة الاندلس بفاس كان غفيرا ، يقال أربعة آلاف أهل بيت (الاستقصا ج 1 ص 73) .

فهو الذى يشرف على الحناطى ويراقبها ويراقب الاسواق والمكاييل والموازين وهو الحكم الذى يرجع اليه فصل الدعاوى بين التجار والصناع والمحترفين

وبالجملة فقد كانت له السلطة الكاملة فى ميدانى التجارة والاقتصاد

وقد تحدث م . باليز (النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب فى عددى 49 و 50) عن نظام الحناطى بالمغرب فلاحظ انه كان يتسم فى جميع العصور بطابع الحرية حيث أن المخزن كان يحترم مبدأ الحرية التجارية قبل صدور ظهير 1917 القاضى بتنظيم البلديات وفى فاس بالخصوص كان هذا النظام حرا جدا وانما فسد بالاحتكاك بالغرب



وعاء خزفى

وكثيرا ما كان ملوك المغرب يهتمون برجال الصناعة ويعملون على تنمية مواردهم وضمان مصادر لمنتجاتهم فقد بعث مولاى زيدان عملاء الى أوربا للدعاية للمنتجات المغربية وعمد فى نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاحمة الاجنبية فحظر

توريد بعض المنسوجات الانجليزية *

وكان للاندلسيين أثر في تكييف الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب لاسيما في المراكز التي استوطنوها حيث اختلف التاثير باختلاف هوية المهاجرين وطبيعة المهجر واغرب ما في الامر أن الاثر الفلاحي غلب مثلا في سلا بينما تأثرت الرباط بالطابع الارستقراطي والصناعي وكانت في الحقيقة ثلاث مدن : قصبة الاوداية والرباط وسلا وان كان بعض المستشرقين يطلقون سلا الحديثة على الرباط في حين سمى الادريسي سلا الحالية بسلا الحديثة (وصف افريقيا ص 48) حيث أشار الى ما كان فيها قبل بناء الرباط من « أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع ومراكب أهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم » .

وقد ذكر كاييي أن في عام 1636 استولى اندلسيو سلا الحديثة (يقصد الرباط) على القصبة وطردوا أهلها الى سلا أو الجزائر وأصبح عبد الله بن علي القصري الحاكم الوحيد فطمح الى حكم سلا فبنى قنطرة أمام حسان (لعلها في مكان القنطرة القائمة الآن) لنقل مدافعه وجنده فاستجند السلاويون بالعياشي فخلصهم وانجلترا هي التي هدمت هذه القنطرة في نفس الوقت على يد أميرا لها رنسبورغ ولعل هذا التاثير المزدوج الذي تركه الاندلسيون في بلدتين متجاورتين من أغرب المظاهر التاريخية حيث تختلف الطبائع والاستعدادات بين المدينتين من النشاط ألفياض والروح التجارية عند السلاويين الى ارستقراطية شبه جامدة في بعض العصور عند الرباطيين الذين اتسموا – خاصة في العقود الاخيرة بنوع من الركود الاقتصادي تمخض عنه أخلادهم الى اقتناء العقارات والتعيش من ريعها آنفين – بما طبع عليه الكثير منهم من كبرياء – من ممارسة أعمال التجارة والفلاحة هذا بينما كان بين اسرهم البورجوازية من تغرب وأسس المراكز التجارية في الشرق ودول أوربا ونحن نرى هاتين الطبيعتين مزدوجتين في فاس وتطوان مثلا وهذا يفسر لنا – بعض الشيء – العوامل الحضارية والتاريخية التي جعلت من هذا المركز أو ذاك مركزا صناعيا أو فلاحيا أو هما معا .

وقد ذكر سرفانطيس مؤلف دون كيشوط في بعض رسائله أن الاندلسيين العرب كانوا يحتكرون حتى بعد سقوط الاندلس تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ومنهم تجار البقالة والماشية والقصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وهم لا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال أموالهم وكان ذلك من دواعي قوتهم وذكر الدكتور لي (الموريسك ص 204)

وذكر الدكتور لي (الموريسك ص 7) أن العرب من أهم عوامل النشاط والرخاء في اسبانيا وأن براعتهم كانت قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون وخلالهم

قدوة في النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق وكانوا على الجملة مـن أفضـل العناصر التى يمكن أن تضمها دولة متمدنة)

وكان التسول معدوما . في الاندلس وقليلا جدا في المغرب حيث لم يستفحل الا في عهد الحماية من جراء سياسة نزع ملكية الاراضى الفلاحية التى جرفت بكثير من البدو الى أرباض الحواضر حيث سكنوا في اخصاص موبؤة أو مدن القصدير وقد ذكر المقرى في النفح (ج I ص 104) = (وأما طريقة الفقراء على مذهـب أهـل الشرق في الدول التى تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه فلا تجد في الاندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر) وبخروج العرب من الاندلس اندرست فنون اشبيلية وطليطلة والمرية وعفت صناعاتها (لين بول ـ الموريسك في اسبانيا)

واذا راجعنا لوائح الصناعات التى كانت مزدهرة في العدوتين نجدها منوعة جدا فمن الانسجة المختلفة الى أنواع من الصناعات الجلدية والخشبية والمعدنية الى الخزف المرصع الى غير ذلك .

وقدأشار ابن مرزوق (القرن الثامن) الى بعض أنواع الصناعـات المغربيـة المتصلة بالبناء وحده فذكر النجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنوبين والدهانين والحدادين — والصفارين (المسند الصحيح ص 39) (I)

والاثر الاندلسى ظاهر في كل ذلـك .

فهذا الزليجى الفاسى الذى هو نوع من الترصيع الخزفى أصله من الاندلـس فقد كان يصنع بالاندلس نوع من المفضض (المعروف في المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض (المقرى في النفح نقـلا عن ابن سعيد ج I ص 187)

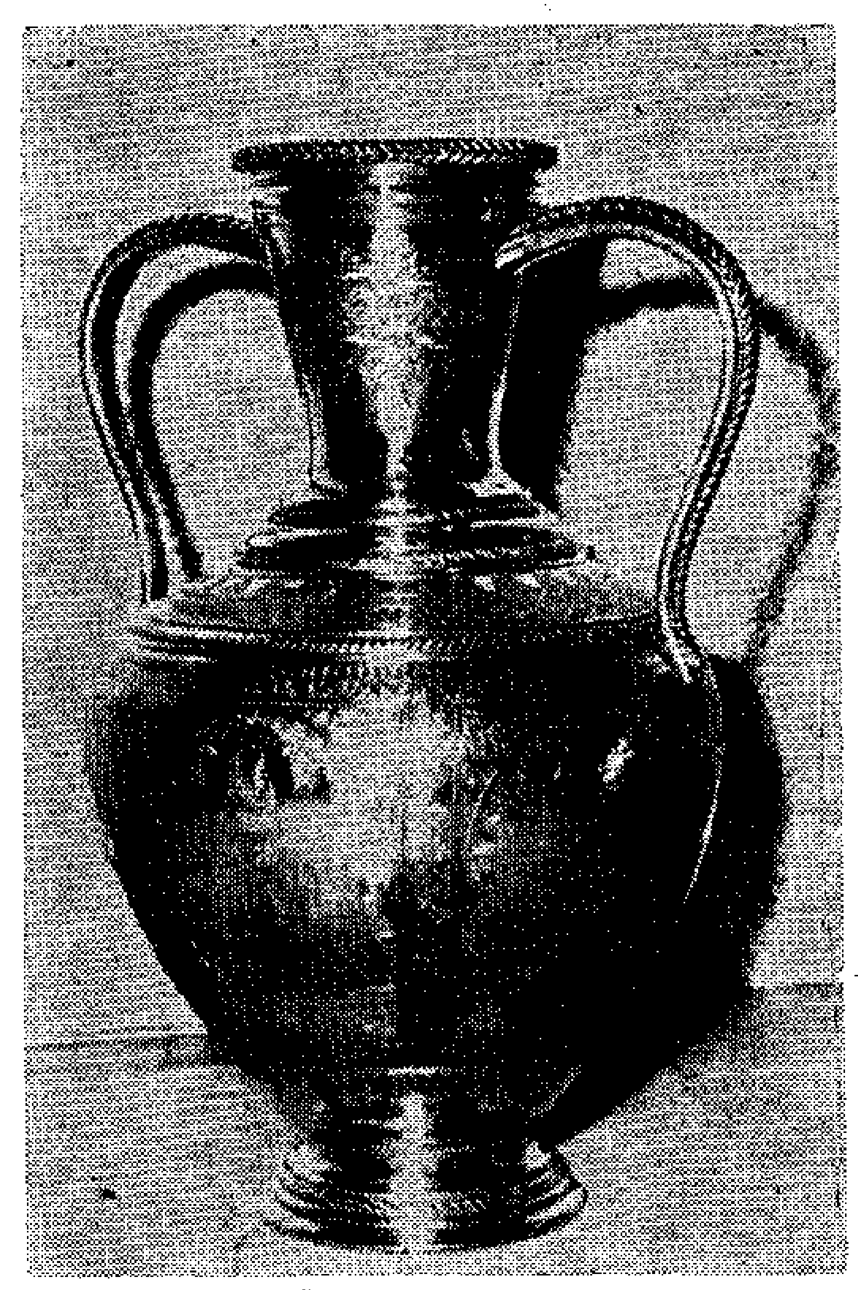
وقد جلب الحكم الاموى الفسيفساء عام 354 هـ من ملك الروم اقتداء بالوليـد في بناء مسجد دمشق فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء 320 قنطـارا

(I) لما أراد الموحدون اتخاذ أصونة للمصحف العثمانى « حشروا الصناع المتفننين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصيـة فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصباغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصفين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاءالبنائين . . فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة وأشكال مبتدعة وضمنوهامن غرائب الحركات وخفي امداد الاسباب للمسببات (النفح ج I ص 291) .

هدية فرتب جملة من المماليك لتعلم الصناعة فأبدعوا وأربوا على الصائغ الذى صدر راجعا عند الاستغناء عنه (المغرب لابن عذارى ج 2 ص (354) .

والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية) وهناك مرادفات حسب البلاد والعصور منها التلبيس والترسيب والتنزيل وأصحها عند العرب في العهد العباسي التطبيق.

وفن الترصيع ربما ادخل الى المغرب من سوريا مباشرة أو عن طريق الاندلس



وعاء من صنع مغربى (يكون اما من النحّاس واما من الخزف)

رما زال الاوربيون يسمون هذا الفن الى الآن بالفن الدمشقي في جميع أنواع الاواني والحلي وفولاذ دمشق مشهور في أوربا حيث كان يستورد بكثرة ومن الشرق دخلت أساليب الصناعة العربية الى ايطاليا أول الامر وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار الاوربية حتى اضطر أحد ملوك فرنسا الى اتخاذ قرار لتحديد ذلك السيل (اعراف المسلمين وعاداتهم ص 247)

وغالب فنون التطريز والترقيم المغربي من أصل أندلسي وبعضها من أصل أوربي أو شرقي . فقد نشرت هسبريس (ج 2I عام 1935) بحثا حول التطريز المغربي فلاحظت أن النماذج التي اقتبس منها مختلف الفنانين بأزمور اسبانية ابطالية يرجع تاريخها للقرن السادس عشر والحواشي المطرزة في أزمور هي انموذج للنهضة الاوربية بالمغرب .

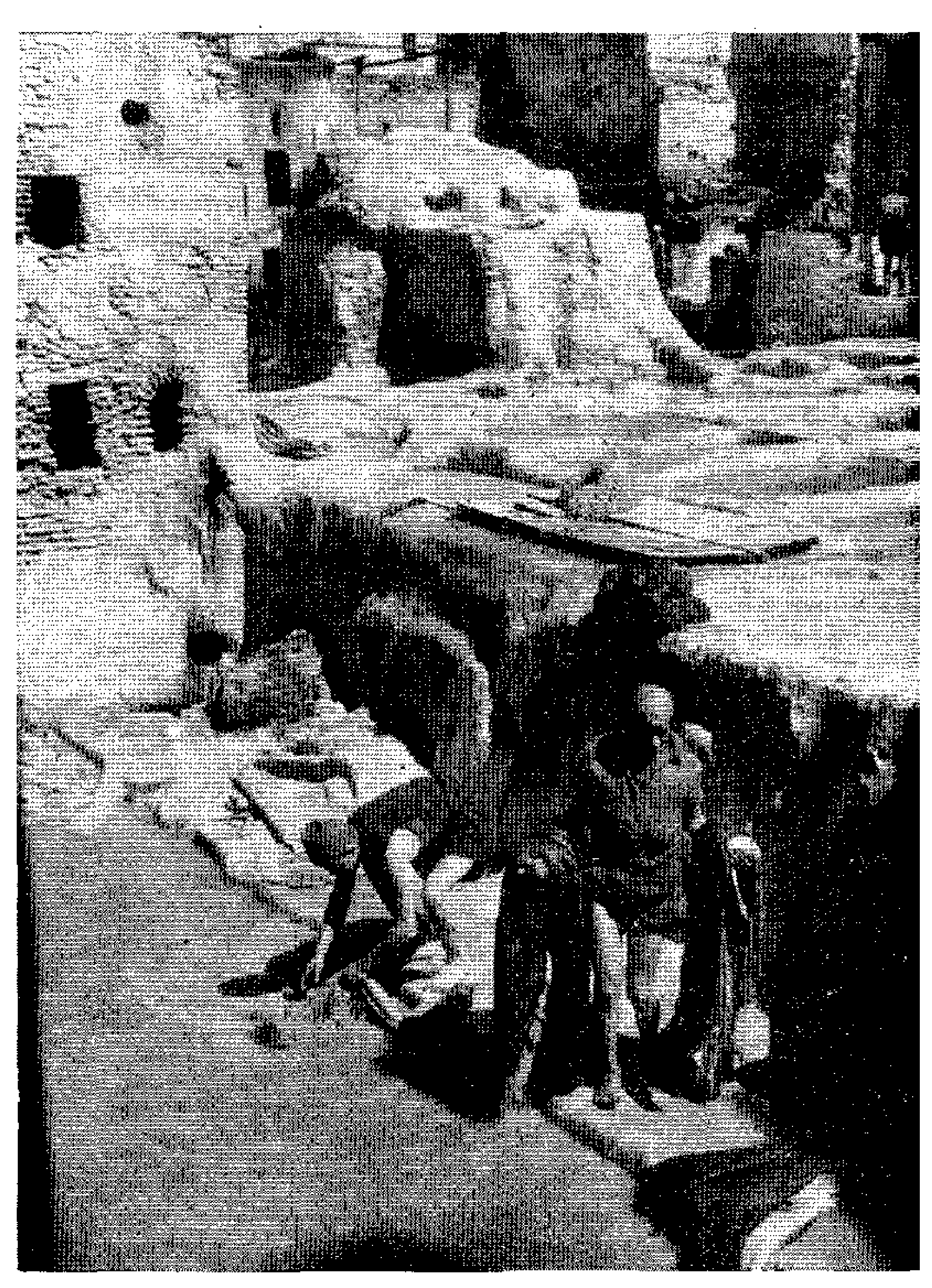
أما تطريز فاس فانه يستمد من الفن السوري واذا قارنا بين النماذج الاوربية والنماذج المغربية وجدنا أن الفرق غير محسوس اللهم الا في تناسق الرسوم وهنالك نماذج سلوية من أصل فارسي أو شامي وكلها معروفة في أوربا وقد نقل الاندلسيون بعض الاساليب الاسبانية ويلاحظ في تطريز الرباط تاثير الانسجة الاوربية .

وهنالك تطريز بفاس علجي الاصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات — اللواتي تسرى بهن أهل فاس وغيرهم ثم التطريز التطواني الذي هو من أصل بلقاني . (I)

وفي القرن العاشر الهجري حسب الحسن الوزان — كان عدد كبير من العملة يشتغلون في دور السكة بفاس ومراكش (الذهب والفضة) وتيويت بسوس (الحديد) والمدينة بهسكورة (الذهب) وأزمور (الذهب والفضة) وسلا (الذهب والفضة) ونول وسبتة وسجلماسة (الذهب والفضة) ولكن وجود العملة لم يمنع السكان من الاستمرار في المبادلات الطبيعية بدون نقد لا سيما في الجنوب (هسكورة وتادلا والحوز) حيث تستعمل الفضة في حلي النساء (ص 100)

وتقوى أهمية المراكز الصناعية أو تضعف تبعا لمواردها الاقتصادية ووفرة الصناع بها فقد قام الاستاذ ما سينيون في سنتي 1923 و 1924 بتحقيق حول حناطي

(I) ولم تحل روح التقشف التي أظهرها بعض ملوك الموحدين دون ازدهار فن الزخرفة فقد أمر المنصور بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل وأمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص (البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 8I)



الدباغة على الطراز القديم

المحترفين والتجار بالمغرب في فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه بعد التمحيص ان رجال الحرف في كل من هذه المدن يبلغ عددهم نصف مجموع سكان كل مدينة (الحناطي الاسلامية - باريس عام 1925 ص 38) (1)

وقد ذكر كايي في تاريخ الرباط (ص 193 الى 196) ان الرباط وسلا كان بهما اثنا عشر معملا لصنع الزرابي انتجت 840 زربية خلال سنة 1855 يوزع نصفها على مختلف انحاء المغرب ويصدر الثلث الى الخارج والباقي يستهلك في الرباط وسلا وكان بالمدينتين أيضا خمسة معامل لصنع الحايك طول الواحد ستة أمتار في متر ونصف ويباع بستين فرنكا وأقلها ثمنا تباع بخمس فرنكات وقد صنع منها في المدينتين 63200 عام 1855 زد على ذلك 400 جلابة (جلباب) من الصوف طولها خمسة أمتار وثمنها عشرة فرنكات للواحدة .

وصنع في نفس السنة 460800 سبنية من القطن المغزول المصنوع في جبل طارق قيمتها 345600 فرنك .

وكان بالمدينتين أربعون دارا للدباغة وعشر دور للصباغة تعالج كل سنة أزيد من 110.000 كيلو من الصوف و 1500 كيلو من الحرير و 150 معملا للبلغة و 30 من دور فخارة تصنع 600.000 آنية في العام قيمتها 180.000 فرنك

وكان بالمدينتين أيضا عام 1855 دور ثلاث لضرب سكة البليون تتوفر على اثنتي عشرة مصهرة ويعمل فيها 36 ما بين معلمين وعملة وكانت تذوب في كل يوم تسعة قناطير من المواد الاولية (النحاس والرصاص والقصدير وكبريت النحاس) قيمتها نحو 1184 فرنكا .

وكانت منتجات مصانع الرباط وسلا تقدر بخمسة ملايين من الفرنكات مما يجعلهما المركز الصناعي الثالث في المغرب بعد فاس ومراكش .

واذا اردت أن تأخذ صورة عن مختلف الحرف في أصغر مدينة بالمغرب فلتنظر الى أزمور مثلا حيث ورد في احصاءات يرجع عهدها الى حوالى 1930 (ناحية دكالة - من المغرب وقبائله ج 11 ص 40 ' أن الخبازة كان عددهم 83 (68 امرأة) والفرارنية 60 (48 متعلما و 12 معلما) والقهاوجية 8 والاسكافين 45 والبقالة 180

---

(1) حكى دوكامبو الذى ألف كتابه « مملكة تنهار » عام 1886 أن عائلة متركبة من والدين وستة أطفال كانت تصرف - حسب تحقيق قام به في الصويرة - تسعة عشر فرنكا في الشهر طعاما ومشروبا وسكنى وملبوسا وأثاثا ونفقات غير اعتيادية وكان دخل هذه العائلة أربعة وعشرين فرنكا تقتصد كل شهر خمسة فرنكات (ص 86) .

وبائعوا الاحذية 20 والكفايتية 2 والبياضة أو الدجايجية 18 والجيارة 10 والبناءون الاخصائيون في الطابية (المعروفة قبل سنة 1294 كما في البيان المغرب لابن عذارى ج 1 ص 193) وكلهم من ناحية درعة والبزازة أو بائعوا الثياب 46 والبغازة أو بائعوا السمك بالجملة 52 والشراحة (مجففو السمك) 3 والعبارة 1 والنجارة 40 والبناءون 40 والحدادون 32 والقزادرية وكلهم يهود 8 والمختصون في تبييض النحاس 4 والفخارون 19 والدباغون 11 والنساجون 23 والخياطون المسلمون 25 والصاغة اليهود 21 والحجامون 28 والطحانون 28 والسفاجون 4 والسقاة (الكرابة) 35 والصيادون 800 والدلالون 11 والقنويون 2.

ومن جملة الصنائعية المنتشرين بالمغرب النقايشية والمهارزية (تذويب النحاس) والجوالقية (صناع الفنارات) والقزدارية (1) .

وقد أفردت الوثائق المغربية بحثا في هذا الموضوع (سنة 1907) .

وكانت هنالك مراكز صناعية أخرى لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب فهذه سبتة مثلا أصبحت في عهد الموحدين في طليعة مراكز انتاج الورق الذى لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة وكان العرب يصنعون الكاغد من القطن فقد عثر كازيرى في الاسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام 1009 وهو سابق للمخطوطات الموجودة في نفس مكاتب أوربا وشاهد بأن العرب كانوا أول من استعاض عن الورق بالكاغد والعرب أول من صنع الكاغد من الخرق البالية (حضارة العرب ص 519 ـ 520) .

وذكر المسعودى في المروج أن جعفرا البرمكي هو أول من اتخذ الكاغد أيام الرشيد فتداوله الناس من بعده .

ويقول كريمر بأنه في عصر المعتصم العباسي أسس عمال مصريون في سامرا قرب بغداد مصنعا للورق (أعراف المسلمين وعوائدهم بقلم كوتي ص 249) وذكر كوتي أن مصانع شاطبة كانت تمد أوربا الغربية بالورق بينما كانت أوربا الشرقية تتزود من الشرق ومعلوم أن الطباعة ـ بالحروف المتحركة والتي هي من اختراع الصينيين قد دخلت بفضل المغول الى مصر ومنها الى أوربا (ص 275) وقد ألف

---

(1) ترويجا لمنتجات الصانع المغربي ودعاية لها شارك المغرب عام 1285هـ في المعرض الذى أقيم بباريس في عهد نابليون الثالث ومثل المغرب ج محمد بن العربي القباج الفاسي المعروف بالفرنسوى لمعرفته اللغة الفرنسية وقد بعث معه السلطان نماذج من الانتاج المغربي مثل السروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه (الاستقصا ج 4 ص 232) .

ابو بكر المقدسي كتابا في الخواص وآلة الطبع غريب في معناه مما يدل على أسبقية العرب . والعرب هم الذين نقلوا دودة القز الى اسبانيا ومنها الى المغرب (أعراف المسلمين وعاداتهم ص 247) .

ووردت في مخطوط عربي طريقة لصنع الثلج ولم تكتشف أوربا ذلك الا في النصف الاول للقرن السادس عشر (كوتي أعراف ص 244) كما اخترع عباس بن فرناس الاندلسي صناعة الزجاج من الحجارة وهو الذي حاول الطيران وكتب في الموسيقى ومثل في بيته السماء بنجومها - وغيومها تمثيلا يقرب من الحقيقة .

وقد بلغت الصناعة الدقيقة والميكانيك (علم الحيل) عند العرب مبلغا كبيرا يتجلى فيما كتبه أبو العز بن اسماعيل ابن الرزاز الجزري في كتابه (الحيل الجامع بين العلم والعمل) حيث ذكر أنه صنع زورقا عليه صور بعض ندماء السلطان وصور جماعة من مطربات مجلسه واتخذه من خشب فيه دكة عليها صور الملك جالسا وعن يمينه حاجبه قائما وعن شماله حاملا السلاح وبين يديه غلام في يده قدح كأنه يسقى ودون ذلك جماعة من الندماء جلوس عن اليمين وعن الشمال وبين أيديهم أواني الشراب وقبالة الملك دكة عليها زامرة .. ووراء الدكة الجواري الملاح وعلى حافة الزورق ملاحان بأيديهما مجذفان فيوضع الزورق على سطح الماء في بركة كبيرة فلا يكاد يسكن بل يتحرك وكلما تحرك فان الملاحين يتحركون لانهم على محاور والمجاذيف تحركهم بحركتها في الماء فاذا مضى نصف ساعة تزمر الزامرة وتلعب الجواري بالملاهي بأصوات يسمعها من حضر ثم يسكتن ثـ (يعدن الزمر واللعب) .

وفي كتاب الحيل هذا لابن الرزاز صور كثيرة للساعات المائية والدواليب والآلات المنوعة وهو موجود بالخزانة التيمورية بمصر وكذلك كتاب (علم الساعات والعمل بها) لرضوان بن محمد الخراساني به صور ساعات مائية وما يتخذ فيها من التماثيل والدمى .

وفي أخبار مصر لابن ميسر أن الافضل أمير الجيوش وزير الفاطميين كان له مجلس شراب فيه صور ثماني جوار متقابلات عليهن أفخر الحلي فاذا دخل ووطىء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له فاذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات .

وجاء في تاريخ سديو أن أبا الوفاء البوزجاني اخترع بندول الساعة الدقاقة وقال سمت العالم الامريكي أن كمال الدين بن يونس لا حظ قانون الرقاص وسبق غاليلي الى معرفة شيء منه

ووصف المقري في النفح ساعة كانت عند أبي حمو سلطان تلمسان (لها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانة فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية وفي يدها رقعة مشتملة

على نظم فتضعها بين يدى السلطان ويسراها على فمها مؤدية بالمبايعة حق الخدمة)

وقد صنع أبو عنان المريني على يد موقته على التلمساني عام 758 منجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة بسوق القصر وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة فى طاس وتتفتح طاق (زهرة الآس ص 40)

وقضية مقصورة جامع مراكش المصنوعة أيام الموحدين معروفة وقد كانت تتحرك جدرانها ومنبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفة الازرار الموضوعة فى المدخل الخاص عند دخوله للمقصورة (1) على ان عظمة الابتكار الاسلامى فى الميدان الصناعى تتجلى – كما قال ماكس ما يرهوف – فى علم البصريات التى هى الآن أساس صناعة النظارات والمرايا في العالم وقد جاء في دائرة المعارف ألبريطانية أن ابن الهيثم أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات وجاء فى تراث الاسلام أن علم البصريات وصل الى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم واعترف العالم الفرنسى فياردو بأن كيلر أخذ معلوماته في الضؤ وانكساره فى الجو من كتب ابن الهيثم وقال سارطون أنه أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين والمشهورين فى العالم

ولم يكن العرب يانفون من الصناعة والتجارة .

فقد قال ابن القاسم ان مالكا كانت له أربعمائة دينار يتجر له بها فمنها كان قوام عيشه ومصلحته (مدارك عياض – مخطوط)

وكان أبو حنيفة يتجر بالكوفة فى دار ما زالت موجودة وهى دار ابن حريث (أبو حنيفة بطل الحرية والاسلام) والامام الخصاف أحمد بن عمر بن مهيير كان

---

(1) كانت هذه المقصورة مدارة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها وتختفى اذا انفصلوا عنها وقد اتخذها المنصور بجامعه المتصل بقصره في مراكش وفيها يقول أبو بكر ابن مجبر شاعر المغرب في وقته (له ديوان يشتمل على أكثر من 9400 بيت) .

طورا تكون بمن حوته محيطة	فكأنها سور من الاسوار
وتكون حينا عنهم مخبوة	فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى	فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست بالامام يزورها	فى قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده	كتكون الهالات للاقمار

وذكر المقرى فى النفح أنه زار مراكش عام 1010 فلاحظ أن حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت اثارها (النفح ج 2ص704)

يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ويصنف كتبه القيمة في الفقه في حين يعيش من خصـف النعـال .

والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل في الجص (نفس المصدر) والشيخ ابراهيم المتبولى كان يبيع الحمص المسلوق بالقاهرة (طبقات الشعرانى ج 2 ص 67)

ومحمد بن أحمد بن طاهر الانصارى الاشبيلي النحوى المعروف بالحـدب كـان بفاس . ينتحل صنعة الخياطة وقد رأس أهل عصره وآخذ عنه أبوذر الخشني وابن خروف النحويان (جذوة الاقتباس ص 168)

وأبوتمام كان سقاء في جامع عمرو بن العاص (ابن خلكـان ج 1 ص 172)
وكان الجاحظ يبيع الخبز والسمك (معجم أدباء ج ص 369)

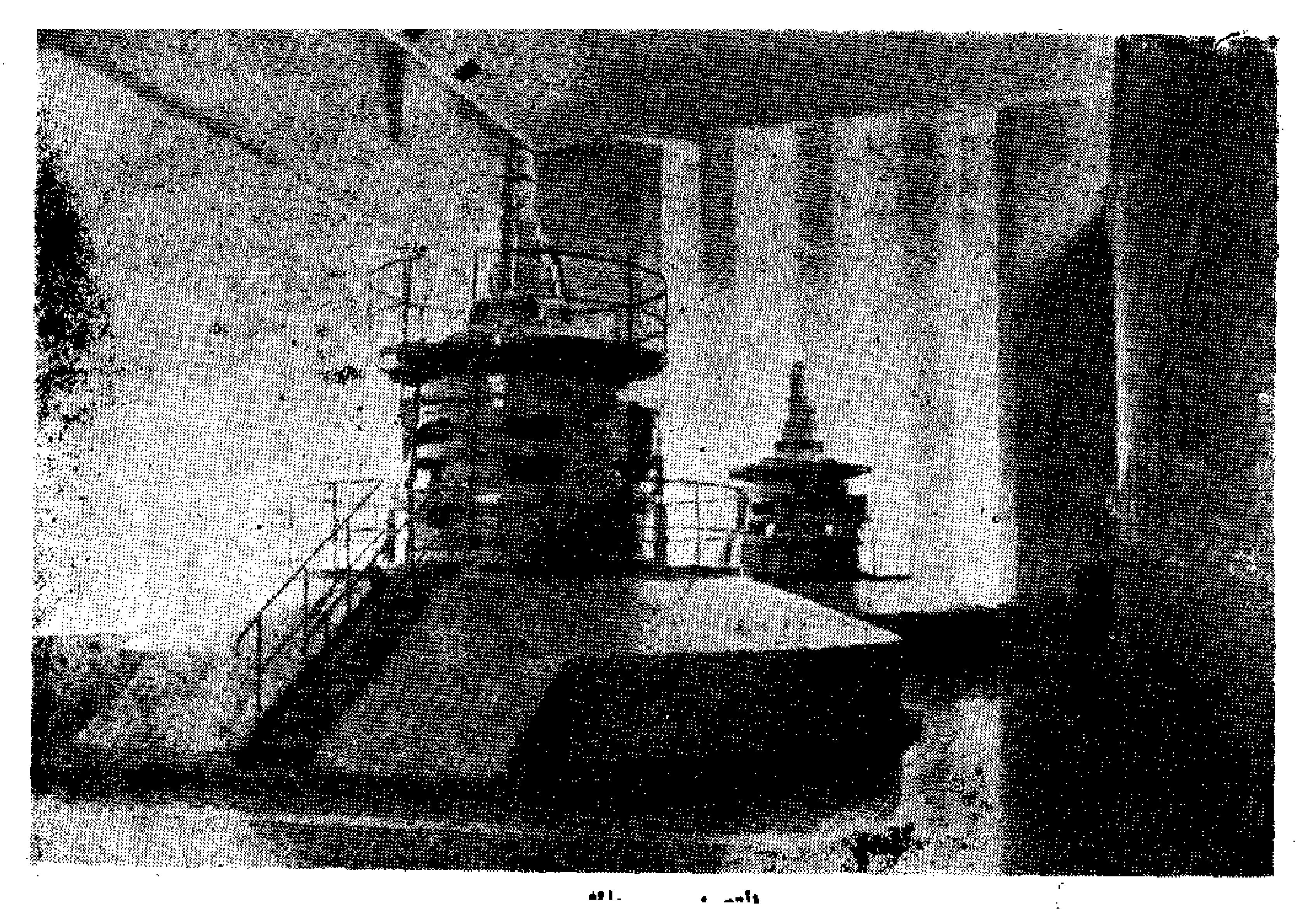
وكان أبو العتاهية يبيع الجرار والفخار ويتوافد على حانوته المتأدبون فيأخـذ هؤلاء ما يكسر من الخزف ويكتبون ما ينشدهم أبو العتاهية مـن أشعـار (الاغانـي ج 3 ص 129) وكان أبو بكر الصبغـي المتوفـي عـام 344 هـ يعمـل الصبغ بنفسـه ويبيعه في حانوته وكان من أعيان فقهاء — الشافعية وكان حانوته مجمع الحفـاظ والمحدثين وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس (طبقات الشافعية ج 2 ص 128)

ومحمد الغسانى التلمسانى كان تاجرا في قيسارية آسفي يدير حانوته بعد الفراغ من مجلس تدريس الموطا والسير والنحو والآداب واللغة توفي عام 663هـ (الذيل والتكملة)

ويذكرون أن العلامة الكبير الشيخ محمد بن عبد الله معن كـان (يتمعـش بمعمل دود القز) بفاس (نشر المثانى ج 1 ص 197)

ومن هذه الفذلكة يتجلى لنا الدور الخطير الذى لعبته الصناعة التقليديـة بالمغـرب والمركز الاجتماعى المهم الذى شغلته في مختلف العصور طبقة التجـار والمحترفيـن الذين ترجع كثير من عوامل الازمة الاقتصادية الضاربة أطنابها الآن الى تضعضعهم من جراء غزو الصناعة الحديثة بدواليبها وآلاتها العصرية لميدان العمل المغربى ولا شك أن من الادوية الناجعة في انعاش هذه الطبقة هى تطور اساليبهـا وحصولهـا عـلى الوسائل المادية الكفيلة بذلـك .

ولا ريب ان مشاريع وزارة الاقتصاد ومنها احداث لجنة عليا للتنسيق وبنك للقرض ستكون عاملا قويا في هذا الانعاش .



الفصل الثامن :

العملة المغربية

علم النميات هو علم تعرف به أنواع النقود التى ضربت فى أزمنة مختلفة وبلاد شتى وفي أيام ملوك وقياصرة متنوعين والنميات جمع نمى وهى كما فى القاموس صنجة الميزان أو الفلوس والدراهم التى فيهـا رصاص أو نحـاس والواحدة بهـاء والجمع نمامى وهذه الكلمة متقاربة مع لفظة لها نفس المدلول فى اللغتين اليونانيـة واللاتينية ومنهما أخذ الفرنسيون كلمة :

ولم يكتب فى هذا الموضوع من علماء الاسلام ومؤرخيه الا أفراد قلائـل منهم البلاذرى فى آخر مصنفه (فتوح البلدان) والمقريزى صاحب الخطط فى (رسالة فى النقود الاسلامية) عنى بنشرها الشدياق ثم أعيد نشرها عام 1933 (وهى تتمم مـا كتبه البلاذرى) وهناك كتاب ثالث هو الجزء العشرون من (وهى الخطط التوفيقيـة الجديدة) لعلى باشا مبارك أفرده للنقود العربية فتم بذلك موضوع تلك النقود مـن صدر الاسلام الى عام 1282 (الموافق عام 1865) والكتاب الرابع موسوم (بتحريـر الدرهم والمثقال والرطل والمكيال) تأليف مصطفى الذهبى الشافعى وهنالك أيضا أقوال متفرقة فى كتب مؤرخين آخرين كابن خلدون والقلقشندى .

أما فى اللغات الاجنبية فاهم ما كتب فى هذا الباب رسالة النقود لم . دوساسى

وقبل ان نرسم لوحة عن تاريخ النقود المغربية نرى من الواجـب التمهيـد لها بلمحة فى تاريخ النقود العربية وكذلك الاجنبية فنقول :

كان الناس يتعاملون أول الامر بالمقايضة قبل ان يعرفوا النقود ويقال بأن أول أمة تعاملت بالنقود هى اللوذية فى متم القرن السابع قبل الميلاد وقد ذكر انستاس الكرملى فى كتابه النقود العربية أن بلاد فارس تعلمت ضرب النقود من لوذيـة على اثر تغلبها عليها عام 546 قبل الميلاد وكانت النقود فى أول أمرهـا تضرب مربعـة ثم جعلوها مستديرة وقد علم اللوذيون العالم النقود المقطوعة بحجم معين ووزن معين وطبعها بطابع الملك كفالة لقيمتها وهكذا شاع استعمال النقود المطبوعـة فـى جـزر المتوسط واليونان واوربا وعند ما نمت ثروة اثينة واتسع اطار تجارتها كانت نقودها تحتل مركزا مهما فى الاسواق لا سيما فى حوض المتوسط ولم يستعمل الرومـان

النقود الا حوالى عام 350 قبل الميلاد حيث ضربوا نقودا فضية على غرار الدراخمة أى الدرهم اليونانى وصغروها الى سدس حجمها الاصلى بعد استيلائهم على جنوب اليونان عام 268 قبل الميلاد على أن القرطاجنيين وهم من الجنس العربى لرجوع عنصرهم الى الكنعانيين سكان فينيقيا (أى ساحل لبنان) هم أسبق الامم الى استنباط النقود الجلدية التى كانوا يستعملونها استعمالنا اليوم للاوراق المالية على أن أول أمة استعملت الاوراق البنكية فى شبه شكلها الحالى هى أمة الصين كما أورد ذلك ابن بطوطة فى رحلته حيث أشار الى وجود (أوراق) بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان واذا تمزقت حملها الى دار السكة ليأخذ عوضها) .

وكان الانباط فى جنوب شرقى الاردن قد اقتبسوا من اليونان ضرب النقود وأول من فعل ذلك منهم الحارث الثالث وكانت للدولة التدمرية نقود فى أحد وجهيها صورة وفى الوجه الآخر أحرف أما العرب قبل الاسلام فانهم كانوا يتعاملون بنقود كسرى أى الدراهم والدنانير وكان الدرهم فضيا والدينار ذهبيا على الاغلب ووزنه مثقال وكان الى جانب هذين النقدين نقود نحاسية وروى عن الزمخشرى أن الدينار قطعة من فضة وهو خلاف المشهور كما يدل على ذلك قول الشاعر الذى شبه الدينار بالشمس والدرهم بالقمر :

ويظلم وجه الارض فى أعين الورى بلا شمس دينار ولا بدر درهم

ويرى المقريزى أن النقود النحاسية لم تكن معروفة فى القديم وهو خطا لوجودها عند الرومان واليونان .

وكانت قيمة الدينار تختلف من 10 دراهم الى 13 أو 15 درهما حسب خلوصها أو زيفها ويقدر الدينار اليوم بنصف ليرة فرنسية ذهبا أو نحو العشرة فرنكات ذهبية وجاء فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا (ج 4 ص 46) أن قيمة الدينار هى خمسة عشر فرنكا ذهبيا . .

وكانت الدراهم الفارسية ثلاثة أنواع منها البغلية أما الدنانير فقد عرف العرب منها صنفين الهرقلى أو الرومى والكسروى أى الفارسى وقد ظل العرب بعد الاسلام يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية فلما ضربوا نقودهم أبقوها على شكلها الرومى والفارسى بكتابتها ونقوشها حتى أن سيدنا خالد ابن الوليد يوم ضرب باسمه نقودا فى طبرستان عام 15 أو 16 هـ جعلها على رسم الدنانير الرومية ويقول المؤرخ الالمانى ميلر بأن خالدا أبقى على أحد وجهى هذه الدنانير صورة الصليب والتاج والصولجان ونقش على الوجه الآخر اسمه اليونانى وقد لاحظ الاستاذ انستاس الكرملى أن هذا يتناقض ما قاله المقريزى من أن سيدنا عمر بن الخطاب هو أول من ضرب النقود فى الاسلام ويريد الاستاذ الكرملى أن يستنتج من رواية ملر أن ضرب

النقود باسمه كان من أهم الاسباب التي دعت عمر بن الخطاب الى تنحينه عن قيادة الجيش وأن عزله كان بعد فتح الشام والقدس لا في واقعة اليرموك والـذى حمـل الاستاذ على هذا الاستنتاج كون خالد لم يكترث للعزل بل ظل على ولائه لعمروحارب في جملة الجند وهذا استصغـار لايمـان خالـد الذى كـان يرى أن طاعـة الخليفـة ولو مخطئا هي طاعة للرسول .

أما عبد الله بن الزبير فهو أول من ضرب النقـود مستديرة فـي مكـة وضرب الامراء والولاة في عهد الخلفاء نقودا في طبرستان عام 28 ه ولكـن أول مـن ضرب النقود الرسمية عربية مستقلة في الاسلام وأوجب التعامل بها كمـا يقول الاستـاذ الكرملي وأبطال استعمال النقود الرومانية والفارسية هو عبد الملك بن مروانخامس أمراء بني أمية باشارة سيدى محمد الباقر بن على بن الحسين ولكن ابن الاثير ينسب فضل هذا الرأى لخالد بن يزيد بن معاوية وقد عرفت دنانير عبـد الملك بالدنـانير الدمشقية وأمر عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بضرب الدراهم ثم صـار أمراء العراق يضربون النقود لبنـي أمية وفـي معلمـة الاسـلام أن الحجـاج اتخـذ دارا للضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال .،. ثم أذن للتجـار وغيرهم ان تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كـان يوخذ مـن فضول الاجرة للصنـاع والطبـاعيـــن .

وحينما غلب هارون الرشيد نقفور ملك الروم البيزانطيين فرض عليه غرامـة مالية ينقش على أحد وجهي نقودها (هارون الرشيد) وعلى الآخر (الامين والمأمون) وقد استعمل العباسيون الحجارة الكريمة كما تستعمل الحوالات المالية اليوم .

وكان الدرهم البغلي يساوى ثمانية دوانق والمغربي ثلاثة فأمر سيدنا عمر بـن الخطاب بالنظر الى الاغلب في التعامل فحددت قيمة وسطى وهى ستة دوانق .

والبغلية نسبة الى بغل وهو اسم يهودى ضرب تلك الدراهم كمـا أورد ذلـك صاحب البرهان القاطع وصاحب مجمع البحرين .

والدرهم في اليونانية دراخمى كما أن الدينار كلمة رومية هي :

والقيراط معرب كذلك عن اليونانية وكان وزنه يختلف بحسب البلاد فبمكـة ربع سدس دينار (أى 24 / I) وبالعراق نصف عشرة (أى 20 / I) كما في القاموس ومن أغرب ما ورد في مجلـة هسبريس (ج 23 سنـة 1936) أن صـلاح الدين الايوبي ضرب عددا من النقود الذهبية والفضية ليسحـب مـن الرواج العملة الزجاجية التى كان الخلفاء الفاطميون قد اضطروا الى استعمالها .

ويجد الباحث نتفا مبعثرةمن تاريخ النقود المغربيةفي جملة المصنفات التاريخية

والرحلات والتراجم الا أن هنالك كتبا أفاضت في هذا الباب كرحلة الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي واذا أضفنا الى ذلك ما أورده ابن بطوطة في رحلته (ج 4 ص 336) والمقريزي وابن فضل الله والزياني ثم ما جاء في مصادر أخرى ككتاب النميات والنقود الاسلامية للاستاذ سوفير Souvaire (87 ـ 1882) والعملة الاسلامية لم . ساسي (1797) وشينيي وبو نفيل في دائرة المعارف النقدية (ص 175) وكذلك النماذج المحفوظة في المتاحف ودور الآثار يمكننا أن نرسم صورة عن النقود المغربية وتطورها وشكليتها وقيمتها خلال العصور وقد ذكر الاستاذ ماسينيون في التعليق الذى حرره حول رحلة ليون الافريقي بعنوان (المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر) (ص 100) لائحة لدور السكة في المغرب أيام الحسن الوزان أي اواخر القرن العاشر مشيرا الى وجودها بفاس (لسك الذهب والفضة) ومراكش (كذلك) وتزنيت (الفضة) وتبوت بسوس (الحديد وهسكورة (الذهب) وأزمور (الذهب) والفضة وسلا (الذهب والفضة كذلك) ونون وسبتة (ما بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر الميلاديين) وسجلماسة (الذهب والفضة ما بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر الميلاديين) .

غير ان العملة لم تكن اذ ذاك منتشرة في كل مكان لان المقايضة كان لا يزال العمل جاريا بها وقد ذكر الحسن بن محمد الوزان ان الفضة لم تكن تستعمل في عصره بسوس ومصمودة وهسكورة وتادلا والحوز الا حليا للنساء لا للتعامل .

وكان هنالك نوعان من النقود نقود حقيقية مسكوكة كالدينار الذهبي والدرهم الفضي والفلس المصنوع من معدن البليون ونقود معظمها غير موجود وانما تتخذ أساسا ومقياسا لغيرها من النقود الموجودة مثال ذلك المثقال العربي الذى كان يساوى في القرن الثاني ما بين 10 و 15 اوقية وما بين 40 و 60 موزونة ورغم أزمة الوفرة أو القلة التي طرأت على التتابع بخصوص الذهب والفضة بعد القرون الوسطى فان قيمة الفضة الشرعية ظلت على ما كانت عليه في الصدر الاول أى سبع قيمة الذهب في حين ان المعدنين كادت قيمتها تتعادل بل تجاوزت قيمة الفضة قيمة الذهب على اثر اكتشاف معادن الابريز ونضوب معين معادن الفضة القديمة وقد ضرب المغرب في المدة المتراوحة بين القرن الخامس والقرن العاشر الهجرى قطعا من الدينار واخرى تساوى نصف دينار وسدسه وربعه وثمنه ونصف سدسه كما سك قطعا من الدراهم ثم قطعا أخرى تعادل قيمتها نصف درهم وثلثه وربعه وسدسه ونصف.

وكان البليون يساوى 6 فلوس والاوقية ريالا اسبانيا ـ ولنستعرض الآن أوزان الدنانير والدراهم والفلوس من صدر الاسلام الى أيام السلطان مولاى الحسن :

فقد عثر في قصر فرعون (مدينة وليلي) على نقود ضربت أيام الادارسة وقبلهم وهي :

دراهم سكت في واسط (مقر الحجاج بين البصرة والكوفة) عام 95 هجرية ودراهم ضربت في مدينة السلام عام 157 ﻫ وأخرى على نوعين ضربت عام 171 ﻫ ودراهم سكت باسم خلف بن الماضي عام 175 ﻫ وأخرى في وليلى نفسها باسم المولى ادريس الثاني عام 181 ﻫ وأخرى باسم المولى ادريس عام 183 ﻫ وأخرى باسم قيس بن يوسف عام نيف ومائة وثمانين هجرية نقش عليها (لا اله الا الله وحده لا شريك له) (راجع مجلة هسبريس الجزء 23 عام 1936) .

والدينار كان وزنه يتراوح في الصدر الاول بين 4 غرامات و 729 و 4 غرامات و 25 وأيام المرابطين نقص وزنه حتى صار يتراوح بين 3,960 ثم ارتفع وزنه أيام الموحدين الذين حاولوا الرجوع الى السلفية وتقليد الاوائل حتى في وزن النقود الى 4,729 غراما كما كان أيام سيدنا عمر بن الخطاب وظل الدينار الموحدي المصمودي مربعا طوال قرن كامل ثم تغير شكله الى التدوير ايام المرينيين دون أن ينقص من وزنه ولكن في أيام الدولة العلوية حتى بلغ ثلاث غرامات ومن ذلك الحين أي منذ عهد المولى اسماعيل ابطل التعامل بالدينار الذهبي اللهم الا ذلك النوع الصغير التابع الذي ضرب بالرباط عام 1787 والذي كانت قيمته تعادل 40 موزونة وهكذا انتهى عهد المغرب بالمثاقيل الذهبية التي استعيض عنها بمثاقيل قياسية من فضة فكان الدينار الفضي يزن 28 غراما ما بين سنتي 1760 و 1787 ويساوي ريالا عام 1849 ويزن 26 غراما عام 1899 وصار وزن المثقال القياسي يتناقص حتى بلغ 1,78 غراما ما بين سنتي 1903 و 1905 ميلادية .

وكان الدينار يساوي :

1 ــ في الصدر الاول عشرة دراهم وستمائة فلس

2 ــ وأيام المرابطين والموحدين مثقالا وعشرة دراهم

3 ــ وأيام المرينيين والسعديين والعلويين 15 درهما

ثم صار الريال يساوي عام 1949 13 درهما ونصف درهم و 1,296 فلسا وفي عام 1899 صار الريال يعادل عشرين قرشا و 3,120 من الفلوس وفي عام 1788 ضربت في اسبانيا سلسلة من النقود المغربية وكانت هنالك نقود تسمى بالزلاغي تتجزا الى نصف فلس وثلثه وربعه وخمسه .

وكان الدوبل (وهو تكبير دبلون عند الاسبان) يستعمل في فاس وهسكورة وتونس وتساوي قيمته عند كل من المرينيين والحفصيين وبني الاحمر في غرناطة ما يعادل 13,50 فرنكا .

أما العملة التي كانت أساس التعامل بالمغرب في العهد الحسني فما بعد فقد وصفها الدكتور فسجيربر في كتابه (الدار البيضاء والشاوية عام 1900) حيث ذكر

ان أساس نظام العملة كان هو المثقال المستعمل مثلا في المعاملات العقارية والبيوع بالمزايدة والذى كانت قيمته تعادل 30 سنتيما فرنسيا بالصرف الوقتي اذ ذاك وكان المثقال يصرف هكذا :

المثقال = 10 اوقيات

الاوقية = 4موزونات

الموزونة = 6 فلوس

الفلس = 6 قواريط

غير ان هذه النقود كانت مجرد عملة تقديرية للحساب أما العملة الرائجة فهى :

النقود الذهبية : اللويز 20 فرنكا فرنسا

النقود الفضية :

الريال = الدورو (الاسبانى) = 4 فرنكات

نصف ريال = 2 بسيطات = 2 فرنكات (او فرنك او 60 قرش)

ربع ريال = فرنك واحـد

1/10 ريال = 50 س اسبانى = 40 س فرنسى

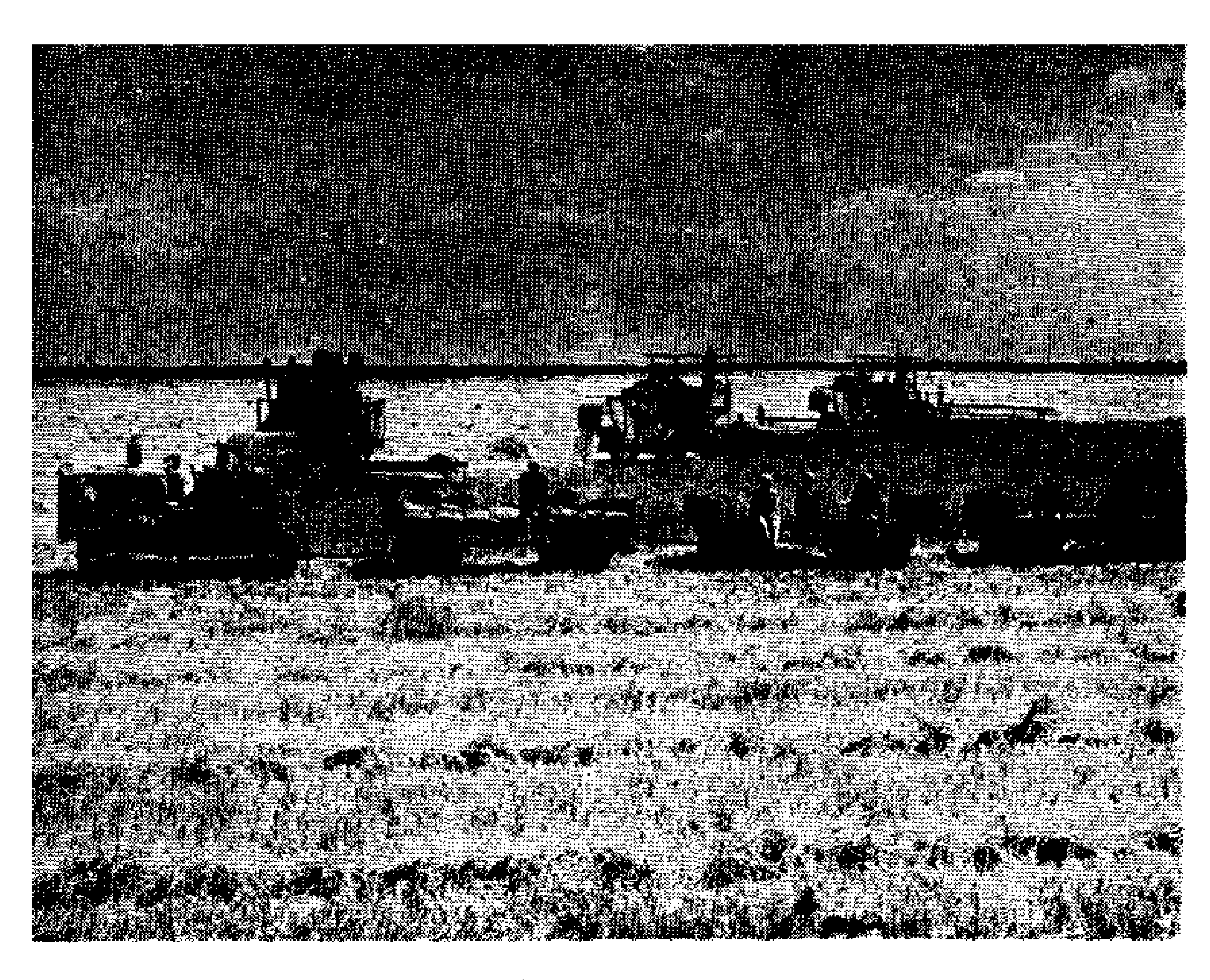
1/20 ريال = 25 س اسبانى = 20 س فرنسى

عملـة النحـاس :

نقود اسبانية تساوى 10 او 5 س

موزونة واحدة تساوى اقل من سنتم

فلس يساوى عشر موزونة



الجرارات الحرائية

الفصل التاسع :

تطور النظام الجبائي

يذكر المؤرخون ان العرب عند ما فتحوا المغرب فرضوا على من لم يدخل الى الاسلام كلا من الجزية والخراج وكانت الجزية عبارة عن مقابل لما يؤديه المسلمون للدولة من الزكوات أما الخراج فانه كناية عن ثمن الارض التى تتنازل الدولة عنها للفلاح بعد ما تملكتها بحق الفتح .

ولكن بعد ما اعتنق البرابرة الاسلام لم يعودوا يؤدون الا الاعشار والزكوات.

وكانت الدولة الى جانب ذلك تتقاضى الخمس من استغلال المعادن التى توجد مناجمها فى أرض مملكة للرعايا وتعتبرها كركاز فتطبق عليها الحديث الشريف (فى الركاز الخمس) وفى اوائل المائة الثانية انتشر فى المغرب مذهب الخوارج الذين كانوا يبثون اراء الشعوبية فحدثت قلاقل وعمت الفوضى فصار العمال المحليون يثقلون كاهل الحواضر بضرائب مختلفة يفرضونها على المواد الضرورية وقد أشار الشريف الادريسى الى جبايات من هذا النوع كانت تطبق فى اغمات .

ولكن لم يكد المرابطون يقبضون على زمام الحكم حتى الغوا جميع هذه الضرائب واقتصروا على الاعشار والزكوات فكانت ميزانيتهم تتوازن بهذه الموارد مضافة الى الجزية المفروضة على اليهود والمسيحيين والخمس المستخلص من غنائم الجهاد فى بلاد الاندلس .

وعندما استولى عبد المومن على العرش واحتل افريقيا الشمالية بكاملها مسح الارض بالفراسخ والاميال ثم اسقط من التكسير الثلث فى الجبال والغياض والانهار والطرق وفرض على الباقى الخراج والزم كل قبيلة بقسطها من الزرع بدعوى ان البلاد فتحت عنوة ثم فرض على الشعب علاوة على الزكوات والاعشار زكاة الفطر ومكوسا على المبيعات وزاد ماسينيون وضريبة المباني وواجبات الابواب كما زاد دوزى الرتبة التى كانت تتقاضاها من الناس المراكز المسلحة فى مقابل تأمين الطرق وفى أيام يوسف بن يعقوب المرينى وأبى سعيد عثمان بن يعقوب وضع نظام جبائى جديد اقتصر فيه على الزكوات والاعشار الدينية فيما يخص الرعايا المسلمين والجزية فيما يخص الذميين وورد فى الوثائق المغربية ان الجزية كانت فردية (ديناران وثمن

دينار للفرد) ولكن صارت جماعية في القرن العاشر حيث ذكر الحسن بن محمد الوزان ان يهود فاس كانوا يؤدون للدولة اربعمائة دوكا في الشهر والدوكا تساوي بصرف القرن الماضي نحو السبعة فرنكات ونيف .

وكانت هنالك فيما رواه ماسينيون في كتابه المغرب في اوائل القرن السادس عشر . (ص179) ضرائب أخرى في شكل ذعائر وجبايات على الفنادق وأخرى على المساجين (دوكا وربع) علاوة على الهدايا التي تقدمها الرعية للسلطان وكان أهل البادية يؤدون زيادة على ذلك الخراج موزعا على مايسمى (بالزويجة) وهي عبارة عن مساحة من الارض يمكن لزوج من البقر ان يفلحها النائبة التي كانت تدفع وبعبارة أخرى نحو الثمانية هكتارات وكانت الى جانب ذلك في مدة يوم واحد للمخزن حسب (الكانون) أو على عدد رؤوس أفراد العائلة .

وكانت المدن تؤدي ضرائب غيرمباسرة تعرف بالمستفاد كمانص على ذلك الحسن بن محمد الوزان ولكن ابا سعيد المريني استعاض عن جميعها بالمكس والقبالة ففيما يخص الاولى كانت تبلغ بفاس مثلا 2 في المائة وتوخذ عن كل شيء عدا الابقار والدجاج والخشب (الجمال والغنم تعفى كذلك في بعض الاحيان) وكانت النسبة تصل احيانا الى 25 في المائة وكان المخزن يتقاضى عن كل مقطوعة من الثوب المستورد من أوربا والمبيع في القيسارية قدرا معلوما من المال .
وكانت هنالك ضرائب أخرى كالضريبة المفروضة على بائعي اللحوم المشوية في الشارع أو على الخضر وكالتي كانت تؤدى عن المكاييل في أسواق الحبوب وهي أشبه بالضريبة التي تؤدى اليوم في رحبة الزرع .

ولكن هذه الانظمة الجبائية تغيرت منذ القرن العاشر الهجري حيث نظمت جباية النائبة في شكل جديد حلله الاستاذ كور وقد تم ذلك عام 1552 م حسب رواية ما سينيون أي أيام محمد المهدي السعدي وفي 1580 أي ايام المنصور أعيد نظام الخراج ثم تطورت الواجبات الجمركية فأصبحت تؤدى عن السكر والفضة والذهب واسترد بيت المال أموالا طائلة من احتكار بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الى أن استعيض عن الاعشار الدينية عام 1901 بضريبة الترتيب .

وقد رسم الحسن بن محمد الوزان لوحة مهمة عن مداخيل الواجبات الجمركية (والنكاس) يتبين منها أن جميع نواحي المغرب كانت خاضعة للنظام الجبائي المخزني فقد بلغ المدخول السنوي في أحد الاعوام 000 300 ـ دوكة أي ما يعادل 4350000 فرنك بتقويم القرن العاشر أو ستة وعشرين مليون فرنك حسب قيمة أول القرن الحالي والذي يؤكد لنا الارقام التي أدلى بها ليون الافريقي ويدلنا على أن المداخيل الجبائية بالمغرب لم تتغير تقريبا خلال ثلاثة القرون التالية ما أورده الاستاذ هوسط عن السنوات المتراوحة بين 1760 و 1768 حيث ذكر ان واجبات الجزية على الذميين

بلغت مائة الف مارك والجمارك 320000 بياستر والاعشار والزكوات 270000 بياستر والنكس (من قبالات وذعائر واحتكارات) 857000 والهدايا 250000 فيكون المجموع 865000 مارك و 932000 بياستر .

وكانت قيمة البياستر الاسبانية تعادل خمسة فرنكات و 43 سنتيما والمارك قيمته قيمة الفرنك بحيث يقدر المجموع بستة ملايين مارك وبما ان المارك في ذلك العصر كان يساوى 1/15 دوكا مغربية ذهبية حسب هوسط فان ستة الملايين المذكورة تعادل400000دوكا أي ما يقارب الرقم الذى ادلى به الحسن الوزان . وقدورد منجهةأخرى في مذكرات القنصل الفرنسى شينيي عن سنة1767بالضبط ان البواخر الفرنسيةوحدها صدرت في المغرب بضائع قيمتها647000ليبرة وجلبت اليه نحو نصف هذه القيمةوفيعام 1773بلغت قيمة الواردات 400000 والصادرات 760000 ومعلوم من جهة أخرى أن معاهدة 28 مايو 1767 تحدد التعريفة الجمركية بعشر قيمة البضاعة الواردة وقد نص عقد الجزيرة فيما بعد على ذلك على أن التعاريف الجمركية المفروضة على الصادرات تتجاوز العشر اذ أنها تتغير تبعا لنوع البضاعة وحاجيات الدولة ويكفي أن تعلم أن المدخول الجمركى بلغ عام 1707 241000 ليبرة اديت عن بضائع لا تتجاوز قيمتها 647000 ليبرة .

وقد تضخمت الموارد الجمركية تضخما مطردا أصبحت معه تسد مسدا مهما في موارد الدولة التي قلت حاجتها الى ضرائب أخرى ويكفى أن 223 باخرة اجنبية دخلت عام 1851 الى المراسى المغربية مثقلة بالقطنيات والحرائر والفولاذ والحديد والسكر والشاى والقهوة والمواد المصنوعة وفي الصويرة وحدها بلغت قيمة البضائع 5583158 فرنكا على ان احتكار الدولة المغربية لحقوق الاصدار والايراد كان يدر عليها مبالغ أخرى ومن جملة المواد التى كان المخزن يحتكر اصدارها أو توريدها لفائدة بيت المال أيام المولى عبد الرحمن قشرة الخفاف وجلود الحيوان والكبريت والاصباغ والقهوة والسكر والشاى والخشب والنحاس والزنك والرصاص وملح البارود والكيف ومناطق الصوف وكان هنالك نوع من الاحتكار يمكن ان يسمى احتكار جلب أو تصدير بضاعة من البضاعات فتنازلت عنه الى تاجر أو طائفة من التجار فى مقابل عوض مالى مهم وقد ورد فى عدة مصادر ان الموارد الجمركية المغربية بلغت سنويا أيام المولى الحسن نحو العشرة ملايين فرنك .

تلك صورة عن نظام المغرب الجبائي في مختلف العصور عن الاساليب التى عمد ملوك المغرب الى استخدامها في عهد السعديين والعلويين فى استغلال الميزان التجارى الدولى لتضخيم الموارد الجمركية والاستغناء بها عن اثقال كاهل الشعب بمختلف الجبايات .

القسم الثالث:

المظهر الحضاري العسكري والدبلوماسي

الفصل العاشر:

الجيش المغربي

ان الجيش المغربي الذى هو مظهر من مظاهر حضارتنا وقوام جوهرى لسيادتنا قد اعتورته أطوار شتى فقد كان في أوائل العصر الاسلامي جيشا غير نظامي يتكون في معظمه من المتطوعين أو من اولئك الذين تعبئهم السلطة القائمة لغاية موقتة فكنت تجد فى نفس الجيش أشتاتا من مختلف القبائل كما وقع فى عهد موسى بن نصير الذى جاز الى الاندلس بالمصامدة وفلول من القبائل البربرية الاخرى المنتمية الى افريقية والمغرب ولم يكن العنصر العربى يمثل فى هذه المجموعة سوى طائفة معدودة حيث لم يرافق مثلا الجيش البربرى الى الاندلس تحت امرة طارق بن زياد سوى سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشعائر الاسلام كما يقول ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب (ص37) ويظهر أن الجيش الافريقى كان مجهزا اذ ذاك بما يتطلبه العصر من عدة اذا اعتبرنا الانتصارات التى أحرزها رغم قلة عدده على جيوش العلوج المشهورة بحسن نظامها وقوة جهازها ولعل مثالا واحدا يعطينا نظرة عن الجهاز العسكرى العربى اذ ذاك وهو أن موسى بن نصير انصرف سنة 95هـ من الاندلس الى افريقية مجيزا الغنائم التى أفاء الله عليه بها فى المراكب الى طنجة ناقلا اياها على العجلات الى الشرق (البيان ص 38)

ولعل الجيوش الافريقية البربرية ظلت مبعثرة تتجاذبها القبائل من البتر والبرانس التى مافتئت العصبية القبلية تمزقها الى ان جاء الاسلام فوحد هذه الصفوف والتأمت تحت ظله مختلف القبائل منذ عام 85 وهو التاريخ الذى تم فيه اسلام أهل المغرب الاقصى تحت ولاية طارق ابن زياد فحولت المساجد التى كان المشركون قد بنوها الى القبلة ونصبت المنابر وطفق البربر يدخلون فى دين الله أفواجا حيث تقبلوا الدين الجديد كما يقول ميشوبلير فى محاضراته بصدر رحب لانه خلصهم من الارهاق الجبائى وجعلهم سواسية لا فرق بين عربى وعجمى الا أنه ما كاد يمر نحو ربع القرن حتى ولى عمر بن عبد الله المرادى عاملا على طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب فاساء السيرة واعترم تخميس البربر زاعما أنهم فىء للمسلمين فاستعرت أول ثورة بربرية حيث شق ميسرة المدغرى عصا الطاعة عام 122 ووجدت دعوة الخوارج ميدانا خصب لنشر دعاياتها على أساس ما يقتضيه الاسلام من مساواة .

وبقيت الحالة متأرجحة بين الاستقرار والفوضى الى أن ظهر الادارسة فيالمغرب فتجمعت حولهم القبائل التى لم يسبق لها ان تكتلت فيما قبل فكنت ترى زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة ومطغرة (أو مدغرة) التى ساندت ميسرة المذكور ومغيلة وبنى يفرن ومغراوة تسير جميعا في اركان الفاتح العربي مخترقة تامسنا الى الاطلس الكبير الى السوس الاقصى فكان للمولى ادريس حينذاك جيش من المتطوعين البربر ثم مالبث هذا الجيش ان قوى وترعرع وانتظم حيث انضم اليه في عهد المولى ادريس الثاني خمسمائة فارس من افريقية والاندلس ينتمون للقيسة والازد والخزرج (زهرة الآس ص I3)

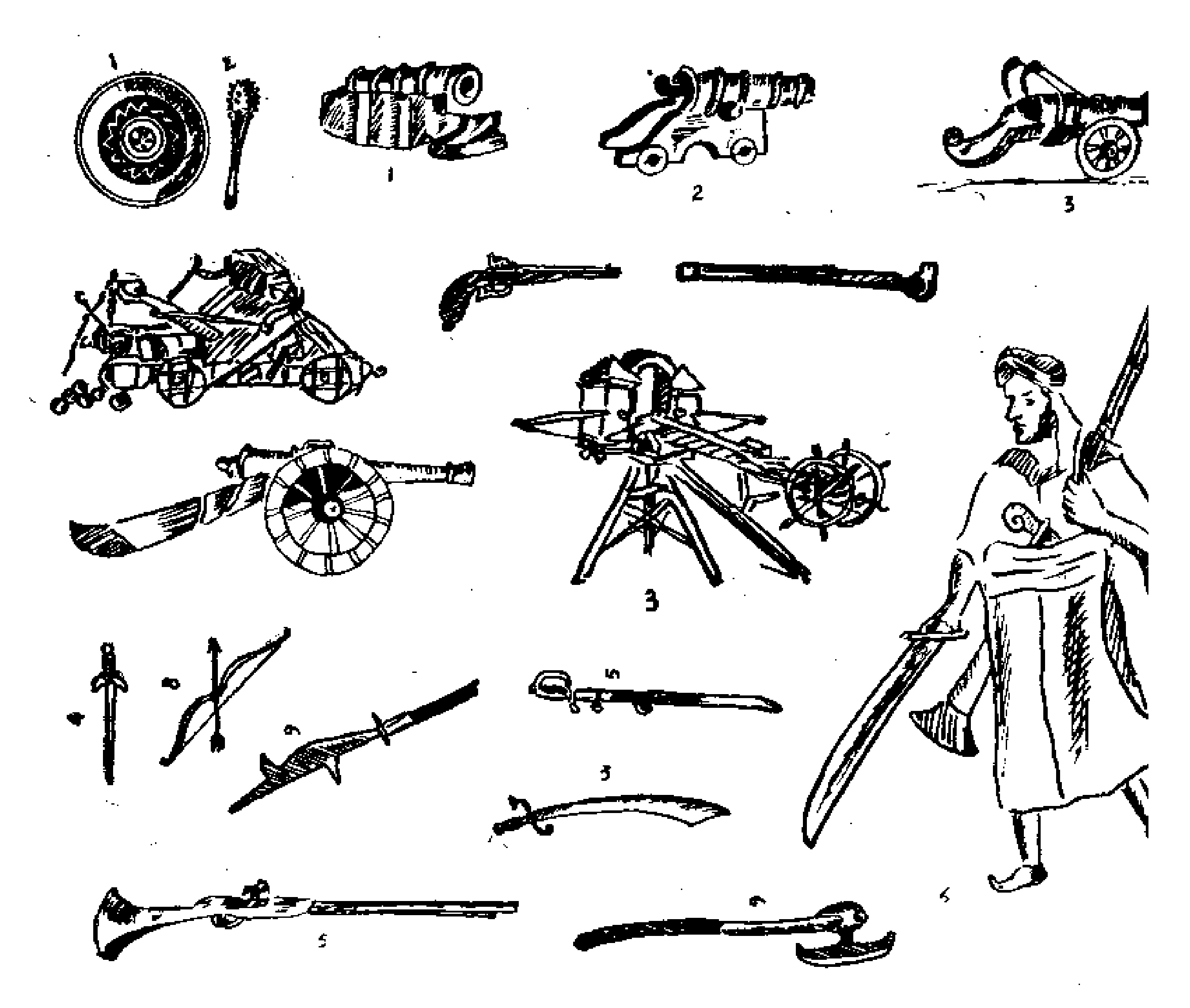
وفى عهد المرابطين ظهر جيش نظامي جديد (I) درب على الحياة العسكرية وانقطع لها غير ان هذا العدد من الجنود النظاميين لم يكن شيئا يذكر بجانب أجناد القبائل التي يستنفرها الامير المجهاد عند الاقتضاء وقد تمكن الامير يوسف بن تاشفين من توحيد الاندلس واسترجاع حصونها وقلاعها من يد الجلالقة وغير الجلالقة ووحد المغرب بفضل استبسال جيوشه المظفرة من الصحراء الى الجزائر الى قشتالة ببلاد الاندلس حيث ترك حامية قوامها ثلاثة الآف من البربر وقد توفر لامير المسلمين المظفر جيش عتيد استعرضه رسميا فى حصن لرقة في جوازه الاول للاندلس (المعجب ص 77) كما استعرض حفيده تاشفين الجيش المرابطي فى تلمسان قاعدة المغرب الاوسط عام 538 هـ (2) (الحلل الموشية I08) ولم يكن لهذه الجنود على ما يلوح ديوان خاص لتسجيلها (3) كما كان يجرى اذ ذاك فى نفس العصر وقبله فى كثير من الاقطار الاسلامية الاخرى والظاهر ان المرابطين كانوا كالفاطميين أول أمرهم يحشدون بغير ديوان انما كان يكتب الى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم وامتدت رقعة المغرب فى عهد عبد المومن بن على الى طرابلس فكان له جيش عتيد اقتلع جذور الاستعمار النورمندى من افريقية بفضل اسطوله الذى كان كما يقول اندرى جوليان فى تاريخ افريقية الشمالية) أول اسطول فى البحر المتوسط (4)

(I) — فى عام 454 ادرج يوسف في جيشه الاغزاز والرماة « فكمل له فى جيشه أزيد من مائة الف فارس من صنهاجة وجزولة والمصامدة والاغزاز (الانيس ج 2 صI4)

(2) قصة استعراض الجيش من طرف عبد المومن بمحضر الوزير ابن عطية (المعجب ص I22)

(3) — تحدث صاحب المعجب عن كتابة ديوان الجيش فى عهد الموحدين (صI62)

(4) — ذكر ابن خلدون فى تاريخه ان يعقوب المنصور امد صلاح الدين الايوبى بمائة وثمانين اسطولا لمقاتلة النصارى بفلسطين ثم قال : «وهذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذبالاساطيل الجهادية وعدمعناية الدول بمصر والشام لهذا العهدبها»



الآلات الحـربيـة القديمـة

ودخلت العناصر الهلالية العربية في الجيش الموحدى الذى اتسم بطابع جديد ضاعف قوته وكتل صفوفه ولم يكن الجيش الموحدى ولا الجيش المرابطى قبله يخلو ان من مرتزقة مسيحيين بحيث يبرهن وجودهم عما كان يذكى أمراء المغرب من روح التسامح ولكن أجل ماكان يلفت النظر فى هذا الجيش الفتى علاوة على نظامه واستماتته الاشعاع الروحى بين صفوفه فقد ذكر المؤرخ ميلية فى كتابه عن الموحدين ان فى كل فيلق من الفيالق الموحدية كانت الصلوات تقام بانتظام ولم يكن ذلك من قبيل التزمت الباردولكنه كان ينم عن ادراك صادق لمعنوية هذه الشعوب التى تكن تصل بينها سوى رابطة الدين فكانت كل قبيلة وكـل فخذة تحت امـرة قادتهـا الطبيعيين اللهم الا فيلق العبيد (ص124) وقد تحدث المؤرخ المذكور عن حملة الموحدين فـى افريقية فذكر ان عبد المومن زحف على رأس مائة الف مجاهد وأنه لم يسبق لحملـة

ان سارت تحت قيادة اجدى واحسن فكنت ترى هذه الجماهير تخترق حقول الزرع دون ان تدوس سنابلها وفى كل مرحلة كان الجيش يصطف بكامله وراء امام واحد لاقـامـة الصـلاة (ص 80) وقد نظم فى مراكش أيام عبد المومن تدريب ثلاثة آلاف من الطلبة بالاضافة الى العلوم التقليديةعلى ركوب الخيل والسباحة والرمايه والتجديف فى البحيرة المؤسسة لهذه الغاية وقد استنفر عبد المؤمن لغزو الاندلس بعد ذلـك الف جندى من كل قبيلة استقر معظمهم بالعدوة واندرج كذلك فى جيش الموحدين فريق من الاغزاز والاكراد الذين نزحوا من الشرق الى المغرب فتقبلهـم الموحـدون لمزاياهم العسكرية ولبث هذا الجيش فى نمو مطرد حتى بلغت مقاتلته فى عهد الناصر ستمائة الف ما بين رجالة وفرسان ينتمون للمغرب وافريقية أجازوا كلهم لانجاد الاندلس (الذخيرة السنية ص 41) (1)

وقد شمل الجند المرينى الذى اتسم بنفس القوة وتوفر على نفس العتاد بـل أشد ـ قبائل زناتة وقبائل العرب المستقرة فى المغرب فكان من العرب الفرسان ومن الاندلسيين حملة الاقواس ومن المرتزقة النبالون والرماة .

ومعلوم ان العرب هم الذين اخترعوا العتاد النارى كما أكد ذلك جوستـاف لوبون في حضارة العرب (ص 616) وأوضح ابن خلدون أن أبا يوسف المرينى حاصر سجلماسة عام 872 بالمجانيق وأكد ذلك صاحب (الذخيرة السنية ص 158) ويفهم من هذا ان المرينيين كانوا أول من استعمل الاسلحة النارية الا أن صاحب الحلل الموشية تحدث عن استعمال ابن عباد للسهام والمطارد والرعادات وغير ذلـك مـن الآلات فى الجواز الثانى لابن تاشفين الى الاندلس أى عام 481 هـ (ص 55)

على أن هناك كثيرا من العادات العسكرية يظن أنها حديثة العهد فى حين كان العمل جاريا بها منذ عدة قرون من ذلك ـ وان كان مخالفا لما يجـرى بـه العمـل الآن ولكن اصل الفكرة موجود ـ ما رواه صاحب الذخيرة السنية نفسه مـن أن رايات العدو نشرت فى عهد أبى يوسف المرينى منكسة فى أعلى منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بعد انتصار الجيش المغربى فى الاندلس (ص 174)

وفى عهد السعديين اقتبس المغرب من تركيا نظامها العسكرى فى كثير من مظاهره واسند المنصور الذهبى الى ضباط أتراك تدريـب العلـوج والاندلسييـن والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان

وقد أكد سوردون ان قبائل الجيش (الكيش) اسندت قيادتهـا الى ضبـاط

---

(1) ـ كان فى جيش عبد المومن 000 380 فارس و 000 100 راجل كلها رابطت فى سلا (الانيس المطرب ج 2 ص167)

يسمون باشوات وهو لقب تركي دخل لاول مرة في العهد السعدى الى المغرب (فرنسا في افريقيا الشمالية ص 154)

وقد بلغ عدد الجنود المرابطين في فاس وحدها في عهد المنصور 22000 من بينهم 4000 مخازنية كلهم بكساوى الملف والحرير والكتان (تاريخ الدولة السعدية ص 73) وكان عدد الفرسان في مراكش اثنى عشر الفا (نفس المصدر 74) والسلطان مولاى عبد الله السعدى هو الذى ادخل الاندلسيين في الجيش المغربي (ص 38) وقد كان لولده المسلوخ ثلاثون الفا من بينهم 1800 اندلسي (ص 48) في حين أن مولاى عبد المالك هو أول من أدرج اهل فاس في سلك الجيش مع ماكان له من رجال الاندلس وشرذمة قليلة من الترك (ص 53)

ومما يدل على أهمية الجيش السعدى (1) أن احدى محلات مولاى محمد كانت تحتوى على أكثر من 150 نفضا أهدى منها مولاى عبد المالك الى الاتراك عشرين وما ينيف على مائة من الجرائحيين والحجامين وأدوات للمجاريح وأردية الكتان للرباطات والجبائر وكان يوتى بالمجاريح من ساحة القتال الى المحلة فتشد جراحهم ويصنع لهم الدواء في الحين (ص 51) وكان الملك قرر التجنيد العام في ظروف خاصة حيث استنفر السلطان مثلا في فاس وأحوازها لمعركة وادى المخازن كل بالغ من عرب وبربر ووجه قوادا لمختلف القبائل والمدر للسهر على التعبئة العامة (ص 60) وبفضل هذا الجيش العتيد تمكن المغرب من الانتصار على البرتغال في وقعة وادى المخازن التي لم ترفع البرتغال الرأس بعدها طوال عدة عقود من السنين كما استطاع المغرب أيضا تأمين البلاد حيث الزم شيوخ المداشر ورؤساء القبائل ضمانة ما يضيع في مقاطعاتهم «فانتشرت العافية وظهرت الهدنة من باب تازة الى أقصى سوس» (ص 66)

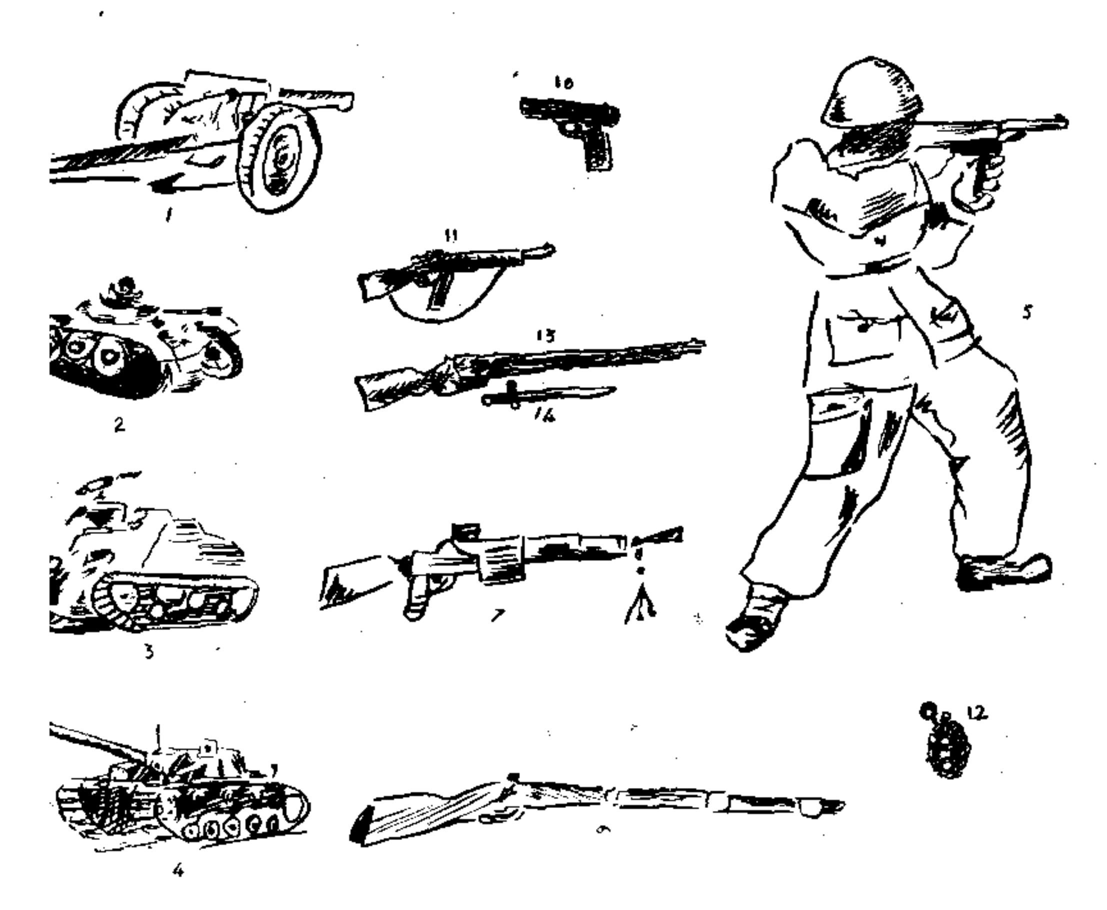
وفي العهد العلوى بدأ نظام جديد انقسمت بموجبه البلاد الى ثلاث مقاطعات عسكرية تافيلالت ومراكش وفاس وأصبحت هذه المقاطعة الاخيرة بعد قليل مركز قيادة الجيش المغربي بعد مكناس في العهد الاسماعيلي

---

(1) _ ذكر جان نيكو في مذكراته التي كتبها عام 1561 ميلادية ان الامير محمد السعدى فتح الجديدة بجيش يبلغ مشاته 12،700 وفرسانه 37،000 علاوة على 13،500 جندى اخرين من الطلائع التي تعبد الطرق و 24 مدفعا منها مدفع يسمى الميمونة الذى كان يبث الرعب في النفوس وكان المغاربة والبرتغاليون يستخدمون الالغام والآلات المضادة لها _

وفي عام 1610 قرر المجلس الهولندى السماح للسلطان مولاى زيدان بصنع ثلاث او أربع بواخر حربية في الاوراش الهولندية ونقلها الى المغرب (وثائق دوكاستر ج 1 ص 519)

وكان عشرات الآلاف من المتطوعين يتواردون من شرق البلاد وجنوبها للانخراط في الجيش الاسماعيلي العتيد الذى تكونت نواته الاولى من شراكة (المغرب الشرقى) والاوداية من الجنوب وأحواز الربـاط والشراردة وكذلـك العبيـد الذيـن كانـوا يرابطون فى مكناس وتنضم الى هذه العناصر القارة فلول من سوس وعبدة والمنابهة والرحامنة واولاد احمر .



المعـدات العسكريـة الحديثـة

وكان الى جانب هؤلاء الجنود المرابطين في القصبات فيالق من المخازنية الذين يقومون بحراسة السلطان أو الباشوات وكان عمال المدن يشرفون على الجنود المرابطة ويراقبونها فى منطقة نفوذهم ويظهر ان المغرب كان مقسما الى سبع نواح (يـزيـد العدد وينقص)

ناحية طنجة وفي ضمنها تطوان واصيلا وفجيج ووجدة (2) وناحية العرائش التي يمتد نفوذ جيوشها الى وزان والقصر 3) وناحية ثالثة مع الجديدة وآسفي وأزمور (4) وناحية مراكش مع الصويرة واكادير وتارودانت وسوس والاطلس الكبير وتافيلالت 5 وناحية الرباط مع مهدية والدار البيضاء 6 وناحية مكناس مع زرهون (7) وناحية فاس مع تازة وقصبات الريف .

وهكذا كانت معسكرات الجند منتشرة في جميع انحاء المغرب ففي ناحية فاس مثلا كنت تجد من الخيالة 3000 من شراكه و 4500 من شراردة و 2000 من الاوداية وكلهم تابعون لقائد المشور على أن جميع الرجال الاصحاء المنتمين لمختلف القبائل والحواضر كانوا خاضعين لمبدأ التجنيد العام أما لتكوين جيش الرديف واما لتشكيل فيالق تعبأ عند الحاجة لمواجهة القلاقل في جهة من الجهات .

وفي مجموع هذه النواحي أقام المولى اسماعيل بالنقط الاستراتيجية معاقل (قصابي) ترابط فيها حاميات يتراوح افرادها بين 400 و 3000 وتمدها القبائل بالمير والمؤن وقد أحصى من هذه الحصون 76 في غربي البلاد وشمالي الاطلس على الخصوص وكان القائد في كل قصبة هو المسؤول عن سلامة منطقة حراسته حيث يجب أن تسود الطمانينة والهدوء وقد عاشت البلاد خلال هذا العصر في بحبوحة من الامن الاستثنائي كما يقول اندري جوليان في «تاريخ افريقيا الشمالية»

ولم يكن هنالك ديوان عام للجيش على ما يلوح اللهم الا فيما يخص العبيد وأهل سوس الذين كانوا يمثلون العنصر النظامي في الجيش المغربي فكانت أسماؤهم وحيثياتهم تقيد في سجلات خاصة وكان المولى اسماعيل أول الامر يستمد جنده من القبائل حتى اطلعه عمر عليليش على دفتر فيه اسماء العبيد الذين كانوا في جيش المنصور السعدي وكانوا منتشرين في مراكش وأحوازها وقبائل الدير فجمع منهم 3000 ، وهذا يدل على أن السعديين كان لهم ديوان عسكري (1)

وما زال البعض من هذه الدفاتر محفوظة في الخزانة الزيدانية ، وتوجد دفاتر أخرى تحتوي على لوائح جنود القبائل وكان في كل قبيلة بجانب السجل الجبائي سجل خاص بالخدمة العسكرية يحرر في نسختين .

وقد أشار الناصري الى ان قضية تجنيد العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلي (ج 4 ص 42) ومن بينهم أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة على وجه الجندية .

---

(1) جمع عليليش بأمر من قاضي القضاة محمد العياشي نحو سبعين الفا من العبيد الحقها بمشرع الرملة وألحق بباب السلطان نحو العشرة الاف من الذكور ومن الاناث عشرين الفا

وكانت الى جانب هذا الجيش عناصر من المخازنية تشكل الحرس الملكي منهـا 4000 من العبيد (300 فارس) علاوة على العناصر التى تنتمى الى القبائل التى تمد البلاد بالرقاصة الفرسان والمسخرين والعساكر الموزعة على المدن والمراكز المحققة غير أن هذه القوة لا ترابط الا للدفاع أما الجيش فانه يستمد عناصره فى الحقيقة من القبائل التى يتعين على كل منها مبدئيا تجنيد طابور يتركب من 500 رجل يحمل اسم القبيلة ، وكان مجموع هذه الطوابير يحتوى على 25.000 المشاة النظاميين مع طليعة من الفرسان وفرقة من الطبجية أو الرماة .

أما جيش المشاة غير النظامى الذى برهن عن استماتته خلال حرب تطوان (1278 ـ 1859) فقد بلغ 25.000 وكان الطابور القبلى يبلغ احيانا 3000 أو يقل عن ذلك تبعا لاهمية القبيلة حيث يجند فرد من كل عائلة وربما تزايد عدد أفراد الطابور فى القبائل الكبرى فأصبح عبارة عن آلاى او فيلق ؛ أما الطابور العادى وهو المحتوى على 500 جندى فانه كان تابعا لقائد الرحى الذى لم يكن شبيها بالكولونيل ، كما يظن البعض ولكن مجرد قائد معسكر ، كما لاحظ ذلك رونى لوكلير فى بحث كتبه عن الحالة فى المغرب سنة 1907 ، وكان لقائد الرحى خليفة يساعده (وهو أشبه بالليوتنان كولونيل حسب البعض) وكل رحى تنقسم الى سرايا من مائة رجل تحت أمرة قائد المائة الذى يريد بعضهم تشبيهه بالقبطان ، والمائة تتوزع بدورها الى جماعات يتركب كل لفيف منها من 12 شخصا عليهم مقدم (أو نقيب عسكرى = سوزوفيسيى) وهذه تنظيمات مبدئية لاندرى ـ لعدم ورود ذلك فيما نعرف من مصادر ـ هل كانت تتحقق دائما فى كل عصر من عصور تاريخنا الحديث على أن الدولة كانت تستعين عند الحاجة بالمتطوعين البالغين لسد الفراغ الملحوظ أحيانا فى صفوف الجيش ، أما فى الحواضر فان الطابور كان يتسم باهمية خاصة فيناهز افراده الالف ولا ندرى هل كانت المدن كلها تساهم فى حركة التجنيد هذه ام لا: الا أن الصحافى الانجليزى هاريس يحدثنا ان مولاى الحسن عمل على تنمية الجنود المشاة فى هذه الطوابير الحضرية بفرض مدد من الجنود على كل مدينة باستثناء مدينة مراكش .

وهنالك ما يدل على ان مولاى اسماعيل ربما حصن بعض الحواضر بالجند استجابة لليوسى الذى لاحظ عليه عدم عمارة الثغور وبدائية العتاد الشعبى كالعصى والمقاليع ، وطلب منه تفقد السواحل من قلعية الى ماسة .

على ان الخيالة الذين بلغ عددهم نحو العشرة آلاف كانوا يعبأون ويوزعون بنفس الطريقة حيث كان الطابور من الفرسان أشبه بكوكبة من 600 فارس ولم تكن كتائب الخيالة تتدخل فى العمليات الا عند الاقتضاء فى حين ان المشاة كانوا دائما على ساق لمواجهة الطوارىء أو خوض غمار «الحركات» وكان قسط مهم من هؤلاء

الفرسان لا يجندون من بين القبائل الا عند الضرورة الحربية الملحة أما في عهد السلم فان الخيالة لم تكن تعدو كتيبة من فرسان الدرك أو الحرس الموزعين على مختلف المراكز العسكرية (400 فارس في القلعة من القلاع الست والسبعين) ، وفي عهد مولاى عبد العزيز أصبح الفرسان يجندون خاصة من قبائل عبدة والاوداية وشراكة والبخاري والشراردة والرحامنة والمنابهة وحربيل .

أما جنود المدفعية فان عددهم كان يتراوح بين 2000 و 4000 رجل يرابط جزء منهم في فاس ووجدة ، وقد استعمل المولى اسماعيل « المدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار والكور والقنابل (البنب) وجند في تادلا وحدها 25000 من الرماة (الاستقصا ج 4 ص 38) وعندما فتح جبال فازاز غنم 10.000 من الخيل و 30.000 بندقية (مكحلة) مما يدل على ان البربر كانوا مسلحين على احدث منوال اذا روعي مستوى العتاد في ذلك العصر ، على ان المولى اسماعيل لم يترك للقبائل لا خيلا ولا سلاحا ، اللهم الا عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين في سبتة التي حاصرها أيضا 25.000 من أهل فاس وكان جيش الودايا يحتوى على ثلاثة ارصاد : أهل سوس والمغافرة والودايا .

وعند فتح العرائش وضع الجنود «الميتات» (البارود) تحت خندق سور المدينة الموالي للمرسى ، ثم أوقدوا النار فنفطت وسقط جانب من السور واقتحم الجند المدينة حيث غنموا 180 مدفعا ، وقد استعمل الجند المفرقعات في الحصار عند تحرير مدن الشمال ، وكانوا يصنعونها بأنفسهم كما استعملوا اساليب راقية في الهجوم (طنجة وناحيتها ج 7 ص 83) (1)

---

(1) — بلغ عدد المراكب في دولته عشرين كبارا وثلاثين من البوارج (الفراكيط) وبلغ عدد قواد البحر ستين قائدا كلهم بمراكبهم وبحريتهم وبلغ عسكر البحرية الفا من المشارقة وثلاثة ءالاف من المغاربة ومن الطبجية أى رجال المدفعية الفين وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر الفا ومن البيض سبعة ءالاف وأما عسكر القبائل الذى كان يغزو مع الجند فمن الحوز ثمانية ءالاف ومن الغرب سبعة ءالاف .

وكان لدى سيدى محمد بن عبد الله 50 مركبا منها ثلاثون من الفراكط تحتوى على 60 قائدا وخمسة ءالاف بحار والفين من الطبجية و 15000 من العبيد و 7000 من الاحرار و 8000 جندى من الحوز و 7000 من الغرب

— وذكر محمد بن القاسم المراكشي في كتابه الحلل البهجة في فتح البريجة أن السلطان محمد بن عبد الله وصل الى البريجة (أى الجديدة) في رمضان عام 1182 فشرع نصارى البريجة في ارسال المجانيق من أسوارها فتقع وراء المحلة فأمر السلطان بضربهم بالكور والبنب وهو شيء على قدر القدور مصنوع من سبعة معادن وزن كل واحد يزيد على القنطار ففرت سفن النصارى وغرقت أربعة زوارق منها وانهزم النصارى واسترجع المغاربة المدينة .

وفي العهد الحسني كانت لفرقة الطبجية هذه عشرون بطارية من نوع كروب وشنايدر أو من نوع رشاشات «ماكسيم» وكان المشاة يستخدمون البنادق من طراز «شاشبو» أو «مارتيني هانري» المصنوعة بفاس على متق خمس في اليوم ، أما الفارس فانه كان يستعمل الحراب والرماح والمسدسات والسيوف والخناجر والبنادق(1)

وقد عمد السلطان مولاى الحسن من أجل تجهيز القبائل بالعتاد العسكرى وتمكينها من الدفاع عن حوزة البلاد بجدوى – الى تكديس مختلف الاسلحة بفاس كما سلك نهجا مرنا في مدافعة الدول حضها لبعض وتحقيق توازن يهدف الى الحيلولة بينها وبين أى تدخل في شؤون البلاد فأسند الى ضابط انجليزى قيادة احد الفيالق والى بعثة من الخبراء الفرنسيين التدريب العسكرى للجنود المغاربة ، كما أناط بضباط ايطاليين ادارة مصنع الاسلحة بفاس وكلف مهندسا المانيا لبناء برج بالرباط ، وقد سبق للملوك العلويين ان أقاموا عدة أبراج في كبريات المدن مثل برج صقالة الذى بناه سيدى محمد بن عبد الله عام 1190هـ (1776م) في الرباط على يد أحد الانجليز وبرج الصراط الذى تم بناؤه أيضا على يد الانجليزى المذكور عام 1169 (1756 – 1755م) وبرج الدار الذى شيده بعد ذلك المولى عبد الرحمن عام 1239هـ (1824م) وكلها في نفس المدينة .

وقصبة الاوداية التى بنيت أيام المرابطين كانت مركزا لجند الاوداية الذين ثاروا في فاس أيام المولى عبد الرحمن فطردهم من فاس عام 1248هـ (1833م) ومحاهم من ديوان الجيش وشتتهم في البلاد فاستقر بعضهم في قصبة الرباط المذكورة وقد بلغت حامية ابى رقراق 2000 من الرماة والبحارة .

وقد تضخم عدد «القصابى» والقلاع حيث أسس المولى اليزيد وحده 16 قلعة علاوة على الست والسبعين قلعة الاسماعيلية وجهز كل واحدةمنها بـ 20 مدفعا .

أما قيادة الجيش فانها ترجع في الواقع الى السلطان الذى يعتبر القائد الاعلى الذى يشرف بنفسه على الحركات المهمة وقد لوحظ ذلك منذ عهد الادارسة ثم في أيام المرابطين حيث نبه عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر اللمتونى الى أن مهمه الامير ليست هى القتال وانما تنحصر في الاشراف والتوجيه ، ولم يكن العلاف

---

(1) – كان مولاى الحسن يحضر تدريب الجند كل اثنين ويستعرض الجيش كل أربعاء (سوردون – فرنسا في افريقيا الشمالية ص 201) وكان مولاى عبد العزيز يستعرض الجند في المصلى بفاس .

الكبير هو وزير الحربية بكل معنى الكلمة وانما كان صلة وصل بين الملك والجيش يسهر على تموين الجند ـ طبقا لمقررات السلطان ـ بالميزة والعتاد ، كما ينفذ الاوامر الملكية فيما يخص تعيين الضباط والقادة وكان العلاف يمسك سجلا للعسكر يقدمه للسلطان يوميا مذيلا بامضاء الصدر الاعظم حيث تسطر لائحة الجند مع التغييرات الطـارئـــة .

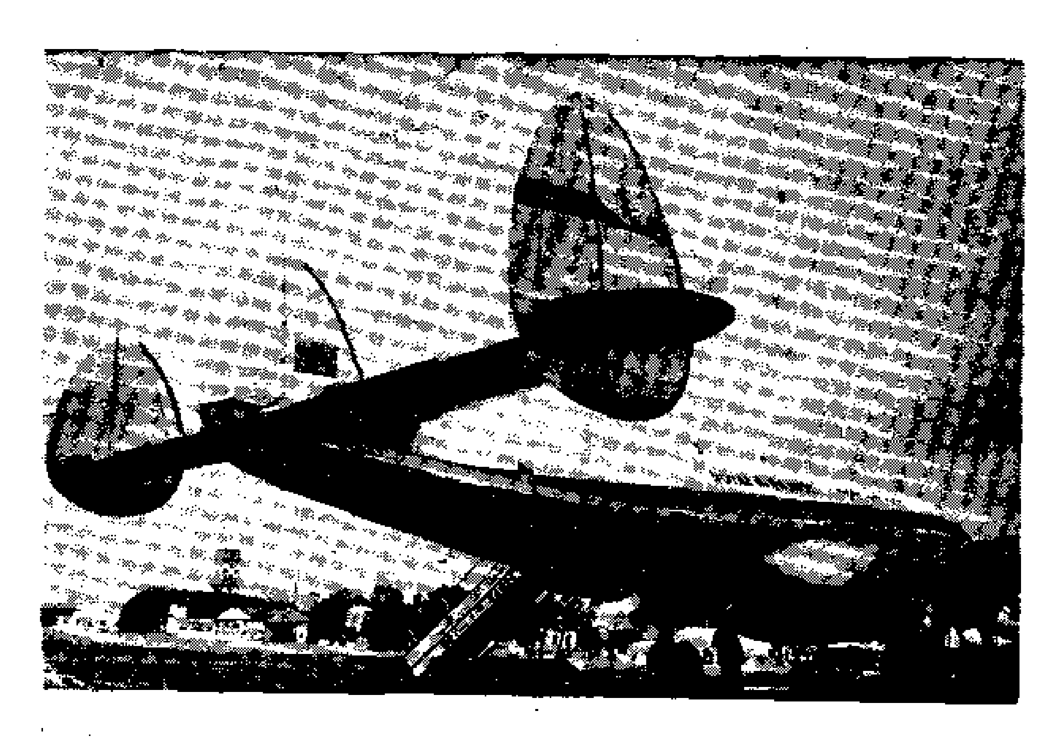
ولكن القائد الاعلى الفعلي هو قائد المشور يليه قائد المحلة (والمحلة مبدئيا هي الفيلق الذى يرابط موقتا في ناحية مضطربة) وهو أشبه بجنرال يشرف على قواد الرحى وقواد المائة والمقدمين وشرطيي المعسكرات ورجال الامن الذين يسيرون في ركاب الجيش ، أما قائد العسكر فهو كناية عن قائد جيش او فيلق يقوم عمليا بدور الامين العسكرى أو ضابط التموين تحت امرة كبير المحلة .

أما التدريب العسكرى فقد اتخذ عدة أطوار أولها الاسلوب المتبع في تدريب العبيد على الجندية ، وما يمكن ان نسميه بالهندسة العسكرية ، فقـد كـان المـولى اسماعيل يعمد الى أولاد العبيد فيوزعهم على البنائين والنجارين ومختلـف أربـاب الحرف ثم ينظم التدريب على ركوب الدواب بالتدريج ، ثم تاتى السنة الاولى للتدريب العسكرى الحقيقى فيلبس الجندى الزى العسكرى ، ثم يمارس ركوب الخيل وسوقها في الميدان ويمارس الكر والفر «والمطاعنة والمرأماة على صهواتها» كل ذلـك خـلال سنوات يندرج هؤلاء الجند بعدها في سلك الجيش ويكتبون في ديوان العسكر وقد بلغ عدد من مارس التدريب على هذه الطريقة 150.000 منهم ثمانون الفا موزعة على قلاع المغرب 25,000 منها في مكنـاس العاصمـة العسكريـة كحـرس للسلطـان 70.000 من المحلة بمشرع الرمل وعلاوة على جيش العبيد نظم مولاى اسماعيل حماة للسواحل فتمكن من تحرير طنجة والعرائش وأصيلا والمعمورة .

ويظهر ان المغرب نهج في التدريب العسكرى مناهج مختلفـة منهـا التركـى والانجليزى والفرنسى لا سيما في فاس والرباط وطنجة وقد ذكر «رونى لوكلير» ان المغرب أوفد بعثات عسكرية الى الخارج لتتدرب في الفيالق الهندسيـة بأوربـا وبالاخص في مونبولييي على حفر الخنادق والتعليم والنسف بحيـث يرجـع البعض بتكوين عسكرى حقيقى وكان الجيش يمارس التمارين ويقوم بالمناورات العسكرية أربعة أيام في الاسبوع اما في أرياض المدينة كفاس واما داخل القلاع كما في طنجة،

وقد استقدم المولى محمد بن عبد الله بعثة من الخبـراء العسكريين الاتراك لتدريب رماة الجيش كما وجه مثلا 600 جندي من آيت عطة و 400 من عبيد تافيلالت الى طنجة للتدريب على العمليات البحرية .

وفي كل يوم اثنين كان مولاي الحسن يحضر بنفسه في تمارين المدفعية ، وفي يوم الاربعاء كان يستعرض الجند لمراقبة عدده وعدده ، وهذا الاستعراض اندرج ضمن العوائد العسكرية بالمغرب ، كما لاحظنا ذلك منذ عهد المرابطين .



طائرة مغربية

الفصل الحادي عشر :

الملاحة والقرصنة

كانت القرصنة من أعظم النكبات التي منيت بها القرون الوسطى وفترات من العصور الحديثة فقد كانت القرصنة حركة رابحة ينجذب لها المسلمون والمسيحيون على السواء وسنحاول ان نحدد فى هذه العجالة مدى المسؤوليات التى يتحملها الطرفان لأن كثيرا من المؤرخين نزعوا الى القاء التبعة كلها على الملاحة الافريقية الوطنية .

لقد وصف كثير من المؤرخين البحارة المغاربة بأنهم أقبح من خاض لجج البحار من الامم والشعوب حتى علق هذا الوهم بأذهان الكثير من الناس وتبلور فى صورة حقيقة واقعية مع ان ذلك يتنافى مع تطور الاحداث قبل وبعد القرن السادس عشر الميلادى الذى يمكن ان يعتبر فى نظرنا بمثابة حد فاصل فى عصر العلائق الطيبة الواثقة فى افريقيا وأوربا والعصر الذى غمرته الآلة واستغلال الاستعمار الناشىء وسنرى كيف ان هذه الحقيقة تتجلى بوضوح فى تاريخ القرصنة بالبحر الابيض المتوسط فقد حاول مؤرخان اثنان يجمعان بين النزهات والضلاعة رسم لوحة جلية المعالم عن السمات البارزة التى طبعت نشاط القراصنة خلال العصور الوسطى وفى غضون فترة غير قصيرة من العصور الحديثة وهاذان المؤرخان هما سيسموندى صاحب كتاب تاريخ الجمهوريات الايطالية « ولا طرى » فى مصنفه حول صلاة المسيحيين بالعرب فى الشمال الافريقى وقد عمد كلاهما الى دحض الافتراءات المروجة ضد العرب فى شأن الفظائع المرتكبة باسم القرصنة البحرية .

فهنالك ظاهرة اولى تدل وحدها على ضآلة تأثير القرصنة فى العلائق المغربية المسيحية وهى ما أكده المؤرخ بالدوتشى بيركولوطى Baldicci Pergolotti

من ان المغرب كان فى حقل التجارة العامة الدولة الثانية فى الصفقات المتبادلة فى أوربا والعالم العربى فما كانت هذه العلائق لتستقر وتنتظم لولا ضمان حظ ولو قليل من السلامة والطمانينة فاستيناس الافارقة بالمسيحيين لم ينصرم رغم تهجمات رعايا بعض الدول الحليفة للمغرب كالجنوبيين الذين وجهوا حملة جزئية ضد طرابلس الغرب التى ظلت منضوية مدة طويلة تحت لواء ملوك مراكش وفاس

ذلك ان الاميرال الجنوى فيليب دوريا Philipe Doria الذى هزمه الاركونيون في سردينيا عمد الى الانتقام لهزيمته الشنعاء من مدينة مغربية وقد أكد المؤرخ ماتيوفيلاني أنه لم يكن هنالك اى مبرر لنشوب حرب بين الجمهورية الجنوبية وطرابلس سوى ان هذه المدينة كانت غنية سهلة المأخذ فكان ذلك أبلغ مسوغ لهذا الاعتداء ففى بحبوحة الحركة التجارية الكبرى التى كانت تذكى هذا الميناء الافريقى تمكنت سبع قوارب جنوية من الرسو عام 1355 بالقرب من المراكب الاسلامية دون اثارة أدنى شبهة وفى غياهيب الدجى تظاهر الاميرال بالابتعاد عن الشواطىء ولكنه مالبث ان فاجأ المرسى بكرة فاقتحم اسوارها وفتك بالمقاومين من رجالها واستولى عنوة على جميع مرافق المدينة وابرق الى جمهورية جنوة بانتصاره البارد وأصدره أوامره باكتساح القصور والدور التجارية والمنازل الثرية وابتزاز مافيها من ثروات فارتفعت قيمة اسلابه الى نحو المليونين من الفلوريين (I) علاوة على سبعة آلاف اسير من رجال ونساء وأطفال غير ان خوف الجنوبيين من ثار الاقطار الاسلامية حدا الجمهورية الى الحكم على الاميرال وجيشه بنوع من الابعاد غير أن الاميرال عفى عنهبعدذلكبثلاث سنوات ومعذلكظل عددضخم منالاسارى الطرابلسيين فى شوارع جنوة ينتظرون الحرية وقد ساق لاطرى هذه القصة ولاحظ أنهلو اقترف العرب ذلك بلدة مسيحية لاثار صرخات مؤرخى العرب وتنديداتهم بوحشية العرب .

وقد اسفر هذا العدوان الجنوى عن بعض الحنق لان افريقيا المسلمة التى كانت تربطها معاهدات بالجمهورية الايطالية آلمها هذا الجرح الوقح فى كرامة رعاياها وعمدت الى جمع الاكتتابات لفكاك الاسرى وقداسهم السلطان أبو عنان المرينى فى افتداء طرابلس وتحرير عدد كبير من الافارقة ويجب الاعتراف بأن الجنوبيين لم يكن من عادتهم ارتكاب مثل هذه الفظائع فرعايا جنوة الذين كانوا يعيشون فى سبتة شاركوا فى الذب عن حوزة هذه المدينة المغربية ضد الصليبيين الذين أغاروا عليهم عام 1234 ميلادية وبالرغم عن هذه الاعتداآت النادرة التى اتسمت فى الغالب بطابع خاص كانت روح التوادد الطيب تذكى العلائق بين الحكومات المسيحية والاسلامية التى حظرت القرصنة على رعاياها وسمحت بتعويض الاجانب المتضررين من ذلك حيث توجد معاهدتان امضاهما المغرب مع كل من بيرزة وجزيرة ميورقة بل ان هذه الحكومات كثيرا ماكانت تحشر سفنها للاقتصاص المشترك من القراصنة وقد نصت معاهدة .

سيبو فى فصلها التاسع عشر على أنه اذا ما أرسل الموحدون مراكبهم لمطاردة

(I) كان هذا النقد مستعملا فى القرن الثامن الهجرى فى بعض البلاد العربية كالشام وكان معروفا بافلور (الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى من 255)

قرصان جنوبيين فان جمهورية جنوة يكون من واجبها تسليح سفن للمشاركة فـي هذه المطاردة ومن أجل الحيلولة دون استفادة القراصنة من أسلابهم حظرت الحكومات المذكورة بكيفية باتة بيع الغنائم والاسرى والتزمت بالمساعدة على افتكار الاسارى العاجل بل وتحريرهم بدون عوض على ان هذه الحكومات قررت فيما بينها اعـدام وتتريك المسيحيين أو المسلمين الذين يقرصنون ضد رعايا الدول المتحالفة . غيـر أن الارقاء من المسلمين ظلوا موفورى العدد في أوربا حسب شهادة لاطرى بل كان المسيحيون الراسفون في الانحلال بافريقيا أكثر منهم عددا يعيشـون بالقرب مـن مواطنيهم الذين يتجرون في أمن وطمانينة في المدن الاسلامية .

وهؤلاء الاسرى لـم يكونوا كلهم ضحايا للقرصنة بل كان منهم أسارى حرب ويجب ان نميز من الاحداث الحربية الناشئة بين دول متحاربة وأعمال التخـريـب القرصنية التي تجرف بكل التجار وكل الامصار من اصدقاء وخصوم ومن مواطنيـن وأجانب وتوجد معاهدة امضيت عام 1323 بين اراكون وتونس تعتبـر القرصنـة نفسها كوسيلة حربية عاديـة مشروعـة سواء عند المسلميـن أم عنـد المسيحييـن على ان القانون الدولى لم يتمكن رغم تقدمه من استئصـال ماتنطـوى عليه المعـارك البحرية من مظاهر الوحشية والجور ضد الملكيـة .

وقد تساءل المؤرخ المسيحى لاطرى عن مدى التبعة التي يتحلهـا كـل مـن المسيحيين والمسلمين في أعمال القرصنة خلال الفترة التي عقبـت غزوات العـرب والتي يمكن ان توسم بأنها عهد سلام وتجارة آمنة فلاحظ أن احصاء الجرائم التى كان البحر الابيض المتوسط مسرحا لها بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر الميلاديين لا من شأنه ـ لوتم ـ ان يحمل المسيحيين قسطا كبيرا جدا من مجموع عمليات النهب والتخريب البحرية التي ينسب المؤرخون ويلاتها الى الافارقة فاذا بين التاريخ ان المسيحيين كانوا أكثر من غيرهم تضررا من القرنصة الاسلامية فما ذاك الا لكون تجارتهم كانت أوسع وشواطئهم أشرح عرضة للاكتساح ولان تاريخهم العام اوضح واجلى عند مؤرخي العرب من التاريخ العربى فقد شهد المؤرخون المسيحيون بالمصائب الكبرى التي ارتكبها قراصنتهم .

وقد أكد لاطرى من جهة أخرى أن الاعتداآت والفظائع المنسوبة للمسيحييـن في علائقهم مع الغريب كانت أبلغ مما اقترفه العرب وضرب لذلك أمثلة تصور مدى تبعه المسيحيين في قرصنة البحر المتوسط خلال العصور الوسطى ذلـك ان جـزر المتوسط مثل سردينية وكرسيكا وصقلية والباليار ماكاد العرب ـ يزحزحون عنها حتى أمست ملجأ لقراصنة أوربيين لا يقلون خطرا عن قطاع الطرق الكبرى وقـد كانت أرباض مدينة كاكلياري « اوكارا للصوص » واضحـت مالطـة فـي القـرن الثالث عشر الميلادى مركزا لغزوات شنها رجل من جنوة مشهور في تاريخ الملاحة

ولم يكن هذا الرجل سوى لص من اللصوص الحقيقيين حسب شهادة عدة مؤرخين ايطاليين وقد عاش فى نفس العصر أحد القراصنة وهو هـوك فيـر Hugues Fer الذى أصله من مرسيلية والذى الف مع اميرال صقلى شركة اثيمة اثرت على حساب تجارة البحر المتوسط بحيث أصبح بيع الرقيق من المسلمين فى المدن الاوربيةظاهرة مالوفة ازدادت استعجالا مع الايام ويكفى ان نعيد الى الاذهان قصة آلاف الفلاحيـن والملاكين العرب الذين اختطفوا من قابس عام 1284 م . وجربة عام 1310 م وطرابلس الغرب سنة 1355 وبيعوا بعد ذلك كالبهائم الخسيسة فى البلاد الاوربية .

ومعلوم أن الاسطول الموحدى كان يسيطر على البحار لأنه كان أول أسطول فى البحر الابيض المتوسط حسب رواية الاستاذ أندرى جوليان عميـد كليـة الآداب بالرباط ... وقد لا حظ ابن أبى زرع (1) احداث عبد المومن لاسطول عام 557 فى جميع سواحل المغرب فأنشأ (400) قطعة منها فى حلق المعمـورة (المهديـة) ومرساهـا (120) وفى طنجة وسبتة وباديس ومراسى الريف (100) قطعة ومنها فى بلاد افريقية ووهران ومرسى هنين (100) قطعة ومنها ببلاد الاندلس 80 قطعة (2) وبلـغ الجيش الموحدى اذ ذاك أزيد من 380.000 فارسا و 100.000 راجلا ، وفى هذا العصر كـان خطر القراصنـة الاوربييـن نسبيا حيث كانت للملوك الموحدين (مليشية) مختصة فى قمع قرصنة المسيحيين والعرب على السواء ، ولكن الملاحة الغربية ما لبثت أن تفوقت فكان لذلك أثره السيء .

على التجارة البحرية حيث لا حظ نطرى نفسه أن كثيرا من رجال الملاحة الاسبان

---

(1) الانيس المطرب بروض القرطاس ج 2 ص (160 ـ 167)

(2) وفى عهد أبى الحسن المرينى كانت المنـارات ممتدة بين أسفـى ومدينـة الجزائر (المسند لابن مرزوق تعريب لفي بروفنصال مجلـة هيسبرس عـن ثلاثـة الاشهر الاولى لعام 1925 ص 61) وقد لاحظ روبير مونطاى فى كتابه البرابر والمخـزن « ص 22 » أن البحارة العرب جالوا الى القـرن الثـالث عشر الميلادى فـى شواطىء المحيط الاطلسى من طنجة الى السينغال وأكد جوستاف لوبون فى كتابـه حضـارة العرب (الطبعة الفرنسيـة ص 284) ان العرب ظلوا مدة طويلة قادة البحر الابيض المتوسط وأوضح (كودار) فى كتابه وصف وتاريخ المغرب جزء 2 ص 156 أن اسطول مولاى سليمان كان يتوفر عام 1793 على نحو 47 سفينة منها عشر بوارج يقود مجموعها ستة آلاف بحار من خيرة الملاحين ، وفى عهد سيدى محمد بن عبد الله كان عـدد البوارج ثلاثين من بينها خمسين مركبا وقادتها نحو الستين يعمل تحـت امرتهـم خمسة آلاف بحار والفان من الرماة ، وكانت من بين البواخر الحربية المغربية عام 1904 (الحاشى) (وسيدى التركى) (والتريكى) (والبشير)

والايطاليين لم يتورعوا عن اراج النهب الفرضي في صفقاتهم التجارية ففي عام 1200 ميلادية هاجمت سفينتان من سفن (بيزا) في تونس ثلاثة مراكب اسلامية في بحبوحة عهد السلام ، واغتنمنا غرة المفاجأة فأحاطتنا بالربابين وانتهك رجالهما أغراض النساء كما ابتزوا ما وقع في أيديهم من متاع وفي نفس العهد كان القراصنة الجنويون يسعون فسادا في جزر امبراطورية الاستانة وسواحلها وكانت الضربات المسيحية تترى خاصة على الاراضي والمراكب الاسلامية ، غير أن البحارة المسيحيين كانوا يجرفون بكل ما يعترض طريقهم دون تقية ولا تحرج سواء كان مسيحيا أو مسلما وقد أكد لاطرى أن هذه الفضائح لم يكن لها أي مبرر وطني أو حربي على ان البحارين البندقيين الذين كانوا مشهورين باستقامتهم بين ملاحي أوربا لم يحترموا دائما التجار الاجانب وكان السلاطين الاتراك يتذمرون غالبا من هؤلاء العداة الذين كانوا يلقون جزاءهم على يد البحارين اليونانيين وأحيانا كان الملاحون السكاندنافيون يطيفون بالسواحل الاسلامية كالتجار وفي الغالب كاعداء وقرصنة ، وفي عام 1053 ميلادية اكتسحت قطعة اسكندنافية المدن الاندلسية واستولت في مياه سردينية على مركب عربي ضخم عمدت الى بيع أسلابة في مهدية وطرابلس اللتين كانا اذ ذاك تحت حكم النورمانديين وقد تحدث عن ذلك باسهاب المؤرخ ريانت Rinat في كتابه حول غزوات السكندنافيين في الاراضي المقدسين ولكن هذا لم يمنع بحاري الشمال = ومنهم السويديون خاصة = من التجارة المباشرة مع المسلمين الافارقة فكانت العلائق التجارية بين أوربا والمغرب وادعة أحيانا مما دعا المؤرخ لطرى الى التأكيد بأن التجار البندقيين الذين كانوا أنزه من غيرهم ظلوا يجولون الى القرن السادس عشر الميلادي في شواطيء افريقيا في بحبوحة الانتظام والأمن ، وكان لمعظم الدور التجارية مراكز وعملاء على هاته الضفاف وخاصة في طنجة ، وكيف لا وقد نصت المعاهدة المشار اليها والمؤرخة ب 1321 ميلادية على ان الفظائع المتبادلة بين القراصنة المسيحيين والمسلمين لا يمكن ان يتحمل تباعاتها البتة رجال التجارة الذين كان يتاح لهم الانتقال من بلد الى بلد في طمانينة وسلام تحت الرعاية الملكية دون أن يزوروا وزر الآخرين .

تلك خلاصة قسط التبعة التي تحملها المسيحيون في عمليات البحر الابيض المتوسط وسنحاول أن نرسم صورة أخرى عن تطور القرصنة الموسومة بالعربية أو الاسلامية والتي انقلبت من صفقة هدفهم الريح الى عملية أصبحت عنوانا عن رد فعل وطني أي سياسي ضد غزوات الاسبان والبرتغاليين للاراضي الافريقية وعمليات التعذيب والتحقيق Inquisitions التي ذهب ضحيتها مئات آلاف الاندلس من المسلمين واليهود .

نعم ان القرصنة في المياه المغربية لم تصدر دائما عن ملاحين من الاهالي بل

كانت فى الغالب من فعل اخلاط المسيحيين الذين اعتنقوا الاسـلام أو الاندلسيين الموتورين الذين طردهم الاسبان من الفردوس المفقود فالتجأوا الى السواحل المغربية متحفزين للوثوب على العداة وقد وجد هؤلاء الطرداء الاندلسيون من مسلمين ويهود الاقتبال الرحب من طرف ملوك المغرب الذين اذكتهم عاطفة مزدوجة مـن السماحـة والاريـحـيـة .

وقد رأينا موقف سلاطين المغرب فى المراحل الاولى للعصور الوسطى وشنهم الحرب شعواء ضد القراصنة مهما كانت جنسيتهم وملتهم ولم يكونوا يكتفون بالقمع بل كانوا يمنحون التعويضات عن الخسارة التى عجزوا عن تلافيها كما شهد بذلك « لاطرى » وكان أساس سياسة عبد المومن الخارجية معاقبة كل من تجرأ على الملاحة المسيحية من المسلمين وحتى فى آبان الحرب كان للملاحة الوطنية وحدها الحق فـى مطاردة وجزر أساطيل العدو ذلك الموحدين الذين كانوا يستجيبـون لمقتضيـات التجارة الدولية ونواميسها والذيـن لقنـوا أوربا بعض مبادئهـا حسـب شهـادة اندرى جوليـان الزمـوا أنفسهم اذ ذاك حمايـة الحرية وضمانة الطمانينة والسلام فى البحار رعيا لمصالح تجارتهم الخارجيـة .

غير ان تفكك اوصال الامبراطورية الموحدية التى امتدت الى طرابلس والاندلس وانقسامها بين امراء مستقلين جعلت هؤلاء عاجزين عن تعقـب القراصنـة الذيـن تطاولوا فى البحـار .

وقد كتب لاطرى يقول : (فى نفس الوقت الذى كان التجار المسيحيون محفوفين بالرعاية والعناية يعاملهم سلطان المغرب وسلطانه بحسن نية استدام نهب القراصنة المسلمين فى البحار بالرغم عن المعاهدات والجهود التى ما فتىء الامـراء المسلميـن يبذلونها) وقد لوحظ ذلك خاصة فى القرن الرابع عشر الميلادى .

غير أن هذه العصابة الافريقية من القراصنة لم تكن كلها اسلامية الملة بـل كان منها خوارج ومتشيعون يتقربون الى الله زلفى ببيع المسلمين الى النصارى وقد أكد المؤرخ التجانى ذلك فى رحلته الى تونس عام 1306 م وذكر صاحب (؛ كتاب (معاهدات السلام والتجارة) نقلا عن التجانى ان هذه الفرقة من الخوارج كانت تقطن جانبا من الساحل التونسى فقد تألفت فى ميناء بجايـة فى منتصـف القـرن الرابع عشر الميلادى عصابة من الخائضين فى لجج البحار المنحدرين من الجبال المجاورة ببجاية وعنابة والمتمذهبين على غرار أهل جربة .

وبصدد مسئولية الاندلسيين فى القطائع البحرية لاحظ لاطرى أن استفحال القرصنة راجعة لانتصار الاسبان الذين قذفوا الى شواطىء المغرب باهالى الاندلس الموتورين الذين لم ير المغرب مندوحة من ايوائهم .

نعم لقد آوى سكان السواحل المغربية القراصنة الاندلسيين البؤساء وزاد ذلك استفحالا غارات الاسبان على المغرب والحنق الشديد الذى اذكى المعسكر المسمى آنذاك ضد المسلمين مما حدا الاب دان Père Dan الى القول بأنه لا ينبغى أن نستنكر ما يقوم به القراصنة المسيحيون ضد خصومهم فى الدين وبذلك يتأكد لنا أن القرصنة المسيحية اتخذت أحيانا مظهر حملة صليبية ضد الاسلام على أن المغاربة لم يتات لهم لاسهام عمليا فى هذا العراك الزجرى لانشغالهم فى الذب عن حوزة المراكز التى اقتطعها الاسبان والبرتغاليون فى التراب المغربى .

وقد كان مجموع المغرب مهددا اذ ذاك من طرف غزاة الاسبان الذين حدتهم الى اكتساح افريقيا روح صليبية باركتها رسميا البابوية اذ ذاك ، ولم تكن تخلو هذه الغارات من الرغبة فى الغنيمة لا سيما وأن استقرار المسيحيين فى الشواطىء المغربية كما يقول الاستاذ تيراس سلسلة من غزوات النهب قام بها البرتغاليون والفرسان الاسبان ، على أن هاته الاعتداآت ضد المغرب تندرج فى اطار حملة استعمارية واسعة النطاق زجت أوربا بنفسها فيها فى القرن السادس عشر الميلادى ذلك أن الاستعمار الاسبانى البرتغالى لم يسعه الا أن ينجذب لثروات بلاد قريبة عن أوربا مثل الشمال الافريقى .

ولا يمكننا أن نفصل تاريخ هاته القرصنة الموسومة بالافريقية عن حركة الغزو والتمسيح التى نسقت (كما يقول تيراس) تنسيقا بديعا تحت ظل البابوية . وقد أغار الاسبان على شرق البلاد بينما اكتسح البرتغاليون غربها محاولين اقرار حمايتهم على جميع المغرب ، ولكن هاته المحاولات باءت بالفشل وارتطمت بصمود تلقائى عنيف حيث هب الشعب المغربى الذى كادت تجرف به لاول مرة فى تاريخه حملة الغزاة الاوربيين فى كتلة متراصة لصد العدوان فخف المتطوعون من جميع أنحاء البلاد للتجمع من انقاذ الوطن المهدد ، وقد لاحظ تيراس أن مجاهدى الجنوب الاقصى للمغرب شوهدوا وراء أسوار سبتة متحفزين للوثوب على العدو ، فقد كان المغربى متسامحا لحد الآن ازاء الاوربيين واستوثقت علاقته مع أوربا طوال خمسة قرون فى جو من التحالف الواثق الهادىء غير أن هذا المساس بسيادته وكيانه وذلك الثلم الاليم لكرامته وحريته أسفرا عن تفتق عهد جديد وسمه الحذر والحيطة بطابع خاص فانقلبت الجماهير المتسامحة المسالمة الى شعب هائج مس مساساً بليغاً فى شعوره القومى فانتفض انتفاضة الموتور للذب عن حماه وحذاه ذلك الحذر الى الانطواء على نفسه لا بالنسبة للعالم المسيحى وحده بل حتى بالنسبة للامبراطورية العثمانية التى اكتسحت منذ القرن السادس عشر الميلادى الاقليميين الشرقيين للشمال الافريقى وهما الجزائر وتونس ، ذلك أن التوسع التركى كان يرمى الى الاستيلاء فى شمال المغرب على بعض المراكز الاستراتيجية التى كانت تركيا ترى من

الضروري مراقبتها لتعزيز كفاحها ضد الاسبان غير أن المغرب الذى كان شديد التمسك باستقلاله لم يتوان فى خوض كفاح مرير من أجل الدفاع عن كيانه ضد كل المعتدين ولو كانوا من المسلمين ، فكفاحه هذا لم يتم اذا بسمة عنصرية ولا ملية وانما كان رد فعل قوى ضد الاجنبى بصفته معتديا وهذه الفترة العصيبة فى التاريخ العربـى قد وافقت سقوط غرناطة آخر معقل اسلامى فى اسبانيا والفتك الذريـع الجمـاعى بعشرات الالآف من الاندلسيين فاضطر المغرب الذى انتزع منه قسط من ترابه الوطنى الى ايواء المهاجرين الاسبان الذين حملوا معهم الحقد وانطوت قلوبهم على ضغينة ضد العداوة ممن طردوهم من بلادهم . نعم ان المهاجرين الاندلسيين حنقوا أشد الحنق على اسبانيا التى فتكت فى ظرف 139 سنة بنحو ثلاثة ملايين من المسلمين واليهود حسب المـؤرخ لـــورانث Lorente فى تاريخه النقدى للتعذيب باسبانيا كما أحرقوا عام 1599 أزيد من مخطوط عربـى حسب روايـة المـؤرخ بيرسكـوت Perscott في كتابه حول فراند وايزابيلا ص 451 وهكـذا انقلب الاندلسيـون الذيـن فقـدوا أموالهم وعائلاتهم من جراء الضربات المتوالية التى أنزلتها بهم باسبانيـا الصليبيـة هبوا ليأخذوا الثأر لقتلاهم فاستوطنـوا بعض مدن الشمال وكونـوا عصابـة مـن القراصنة هاجمت الاساطيل المسيحية فى قوة وعنف ، فتحولت القرصنـة البحريـة آنذاك الى كفاح وطنى وقـد أبـرز المـؤرخ الانجليزى لينبـول هـذا النـوع الجديـد من الحرب فى الكتاب الذى صنفه حول قراصنة افريقيا وبذلك ارتسمت القرصنـة كمرحلة جوهرية فى المناورات الحربية فى ذلك العصر فاقض القراصنة الاندلسيـون مضاجع الغزاة الاسبان الذين كانوا قد استقروا بقسم من الساحل الافريقى مما حدا الاستاذ تيراس الى القول بأن سيطرة العثمانيين على سواحل الجزائر وتونس كـانت نتيجة رد فعل . لعائلة من القرصنة ضد الاكتساحات الاسبانية على هاته الشواطىء كما آكد المؤرخ أندرى جوليان أن تدخل هؤلاء القراصنة العرب هـو الـذى ادى الى فشل سياسة اسبانيا الافريقية كما غير مجرى تاريخ القارة الافريقية .

ففي عام 1501 م نقل السيد خير الدين المعروف عند الاوربيين بباربورس وهو مسيحي الاصل من جزيرة ليسوس اليونانيـة ـ مركـز عمليـاته الى البحر الابيض المتوسط بعد ما ساعد على اجازة سبعين ألف أندلسى الى التراب المغربـى (راجـع لين بول ص 59) وبذلك اندرج فى سلك عصابة خير الدين عدد من المرتزقة للقيام بالقرصنة فى مياه المتوسط .

نعم كانت هناك أوكار أخرى للقراصنة فى شواطىء الاطلنطيك لا سيمـا فـى مصب أبى رقراق تطور نشاطها مع الايام حتى أصبح رجالها معروفيـن بالقراصنـة السلاويين وهو اسم أطلق فى الحقيقة على مجموع القراصنة المغاربة غير أن هؤلاء لهم وضع خاص يعتبر مظهرا لمشكلة استثنائية هى مشكلة الداخليين فى الاسـلام مـن

المسيحيين فى افريقيا وسنرى كيف أن هذه القضية المعقدة خلقت لبسا خطيرا فى ذهن بعض المؤرخين .

وعلى أى حال فان الاعمال التى كان يرتكبها هؤلاء القراصنة أصبحت مع الزمان مثار قلق بالنسبة للمغرب ولم يكن فى وسع ملوكنا مواجهة هذه المشاكل لان المسئولية ترجع فى الواقع الى أوربا التى تحدت السلطات المغربية المشروعة فاعترفت لمن يسمون بالقراصنة المغاربة طوال قرنين اثنين بوجود قانونى شبه رسمى (راجع كتاب دوكاستر فى الموضوع) بل ان بعض الدول الاوربية حالفت هؤلاء القراصنة وشجعتهم ثم شملتهم بعطفها وحمايتها مثل هولندا وانجلترا فلا يغرب عن أذهان المؤرخين ذلك العمل الغريب الذى قامت به الولايات العامة (أى هولندا) حيث أجبرت بحارة لوبيك (وهى مرسى المانية تقع على 15 ك . م . من بحر البلطيق) على اعداد مركب جديد لتسليمه الى القراصنة المغاربة بل أن الاسطول الانجليزى حمى هؤلاء القراصنة عام 1681 م . بدعوى مسالمته لهم ذلك أن وجود القارصنة بالمغرب كان يشجع دسائس ومناورات بعض الدول التى كانت تتحين الفرص للانقضاض على الشمال الافريقى وقد استغلت بعض هذه الدول القرصنة نفسها فاعتبرت وجودها خطرا على كيانها وألفت كتلة عملت على القضاء على أسطولنا الوطنى الذى كان معقلا متنقلا وحصنا مكينا للذب عن سيادة البلاد فكان ذلك من أوربا الخطوة الاولى فى سبيل القضاء على استقلال المغرب .

وقد كتب دوكاسر بحثا فيما حول تاريخ « قراصنة سلا » فأكد أن المغرب تمكن من فرض وجوده خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى حد أن الدول المسيحية خطبت ودلى وحالفته وأدت له جزية ثم علل ذلك بأن أسطولا قرصنيا كان يثير الرعب فى الاطلنطيك فوجب أن تضمن ضد السلاويين سلامة السفن التجارية عن طريق المعاهدات والجزيات .

ومعلوم أن القرصنة فى حوض أبى رقراق من آثار أوربيين أنفسهم لان ذلك كان مجهولا فى المغرب حتى استقر أيام المرينيين « وكرقرصنى » فى المعمورة (المهدية) على ساحل الاطلنطيك فعظم شأنه واستفحل أمره وكان القائمون عليه اخلاصا من جميع الامصار فيهم من المسيحيين أكثر من المسلمين كما يقول دوكاستر .

ولكن بعد دولة الشرفاء واسترجاع المغرب لمراكزه البحرية وقع حادثان اثنان كما لهما كبير الاثر فى تاريخ المغرب وهما استلاء خير الدين ورجاله على مدينة الجزائر وتحول محور التجارة الدولية من الشرق الى الغرب على أثر الاكتشافات البحرية الكبرى فقد أصبح مضيق جبل طارق المحجة التجارية الكبرى وكان من بين المدن الساحلية التى نجت من غارات البرتغاليين والاسبان سلا الواقعة على ساحل الاطلنطيك وتطوان على ضفاف المتوسط فأمسيتا « مهدا » للقراصنة المغاربة ثم صارت

سلا خاصة المدينة القرصنية الرابعة - حسب دوكاستر - بعد طرابلس الغرب وتونس والجزائر (1)

وبالرغم عن كون سلا (2) كانت رديئة الميناء فقد اصبحت أهم مورد للغرب حيث كانت أوربا تروج مجموع منتجاتها المصدرة للغرب ، فقد لا حظ قنصل فرنسي (1699 أن منتجات الغرب كانت تباع بأقل من ثمنها في أوربا نفسها نظرا لوفرة الكمية المستوردة وطوال قرن كامل انحدر الى سلا من الفردوس المفقود عدد كبير من المهاجرين على اثر سياسة القمع التى نهجتها اسبانيا اذ ذاك واستمرت هذه الهجرة المؤلمة الى عام 1610 ميلادية وهو تاريخ الطرد النهائي المقرر من طرف فليب الثالث ولم يندمج الدخلاء الجدد مع سكان المدينة بل أنافوا عليهم عددا وثراء وقد انجذب لهاته المدينة التى كانت في حمى أمنع من المدن الاخرى ضد ردود فعل المسيحية عدد لا يستهان به من الاندلسيين - الذين كانت تذكيهم روح المغامرة البحرية فوجدوا في القرصنة ذريعة للاقتصاص من اسبانيا بوجه خاص ومن المسيحية عامة ، مع تنمية ثرواتهم في آن واحد ، وقد شجع السلطان عبد المالك السعدى - استقرار هاته العائلات الاندلسية لا سيما وان المدينة المعمورة التى سبق لعبد المومن الموحدى أن أقام فيها 120 قطعة حربية (3) كانت لا تزال هي وأصيلا والعرائش في قبضة المسيحيين ، فكانت سلا بذلك هي الميناء المغربي الوحيد بالاطلنطيك الذى تتأتى له مراقبة مضيق جبل طارق الذى لم تكن تفصله عنه سوى خمسين

---

(1) كانت سلا ملجأ امينا وقد تنبه الى هذا الوضع الشريف الادريسي الذى وصفها بأنها منيعة من جهة البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول اليها من جهته (وصف افريقيا الشمالية والصحراء المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي طبعة الجزائر عام 1957 ص 48)

وقد ورد في تاريخ الدولة السعدية (طبعة 1353) أن مولاى عبد الملك السعدى أول من أمر بانشاء السفن في العرائش وسلا (ص 53) على أن دار الصناعة كانت موجودة في سلا قبل ذلك .

(2) وقد لاحظ المؤرخ كايى ان هذه المرسى صارت منذ 1614 م الميناء الاسلامى الاقرب الى أوربا في مغرب الاطلنطيك (تاريخ الرباط الاصغر ص 92) الا أن هذا الضيق الذى كان يتسم به مدخل الوادى قد نقص على اثر زلزال وقع في لشبونة بعد وفاة المولى اسماعيل بعشرين سنة مما ساعد دخول مراكب مهمة الى المرسى (كتاب اسماعيل الاكبر للمؤرخ ما كسانج ص 71)

(3) يرى جاك كاييى أن المقصود بسلا القرصنية هي سلا الحديثة أى الرباط ويخالفه في ذلك دوكاستر ، على ان الادريسي نفسه أطلق اسم سلا الحديثة على سلا الحالية (المصدر المذكور ص 48)

مرحلة .وقد لاحظ الاب دان (Dan) أن هذا الوضع ساعد القراصنة على الانزواء المستمر استعدادا للتحفز ضد السفن الاجنبية وكانت معرفة الاندلسيين للجهات الاسبانية ولثنايا البلاد تمكنهم من تقمص الملبوس اللائق للتربص بالعدو والانقضاض على مراكبه ، ولم يكن لهؤلاء الاندلسيين صلات طيبة بالقبائل المجاورة التى أكانت تعتبرهم ضعيفى الايمان فلم يكن بينهم والحالة هذه تآمر من أجل القرصنة المشتركة.

وقد لاحظ دوكاستر أنه ورد على سلا غب هذا العهد أتراك ومسلمون حديثو عهد بالاسلام انحدروا من مختلف آفاق المتوسط وكانوا عبارة عنعصابات اتخذت اللصوصية مهنة لها فما لبث هذا الخليط من البشر ان انساق على غرار أمثاله من سكان المدن القرصنية الاخرى واذ استثنينا العقيدة الاسلامية التى مزجاة فى نفوس هؤلاء فلم يكن هناك كبير لفرق بينهم وبين أهالى مدن المتوسط المسيحية وبالاخص منها (جنوة وبيزا و لفورن و برشلونة) . وكان الاسترقاق هو هدف الجانبيين الاساسى فى القرصنة ، فقد حط الجنويون من كرامتهم التجارية عند ما استرقوا المسيحيين والمسلمين على السواء وفتحوا باب الخناسة على مصراعيها على حد تعبير دوكاستر .

ففى بحبوحة القرن السابع عشر الميلادى كنت ترى فى مدينة جنوة بحارين اثرياء يستخدمون عبيد افارقة ولم يتورع عن ذلك حتى كبار المسيحيين الذين كانوا يضربون المثل لم يديهم ، فقد حكى المؤرخ موبط ان أحد سكان تلمسان كان عبدا عند كردينال مدينة ارجونة ، وقد انقلبت سلا على غرار اخواتها من مدن المتوسط القرصنية الى جمهورية وكانت ظاهرة عادية فى التاريخ لان كبرياء الحواضر البحرية والتجارية كانت دائما تتوق الى الاستقلال الذاتى فقد انفصلت هذه المدن تدريجيا عن الدول التى كانت تابعة لها لاعتناق النظام الجمهورى ، ففى فرنسا ايضا حصلت مدن (مرسيليا و لا روشيل و سانت مالو) على امتيازات وحريات كانت عبارة عن استقلال ذاتى حقيقى ، موجود وكر للقراصنة داخل التراب المغربى كان يتسما اذن مع الناموس الطبيعى فى ذلك العهد . وقد ادخل الاندلسيون الى سلا اللغة الاسبانية كما استعملوا القوانين والاعراف الاسبانية البرتغالية وقد لاحظ دوكاستر أنه لا أدل على ذلك من قوائم أعضاء ديوان سلا حيث اثبتت أسماء عائلات اندلسية مثل وزهراء وفنيس ، غير ان هؤلاء الاندلسيين الذين ظلوا مرتبطين نظريا بسلاطين المغرب حيث كانوا يؤدون اليهم جراية خاصة طواعية لم يكونوا يرتكبون جرائمهم الا خارج المياه الاقليمية الوطنية فضل بذلك التجار المسيحيون القاطنون بسلا المغربية محفوفين بالعناية والرعاية .

وقد استمسك ملوكنا بمبدأ حرية البحار وسلامة التجارة الدولية وجعلوا ذلك فوق الاعتبارات الدينية .

بل كانوا يتحرجون عن مجابهة الاعتداآت المتكررة في هذا الميدان وكانوا يفرقون بين العملى البحرى ـ خلال الحرب وهو عمل مشروع وبين القرصنة التى لم تكن اكثر من لصوصية بحرية .

ان الافارقة لم تكن لهم هواية خاصة في القرصنة مما جعل دوكاستر يؤكد (ان قراصنة طرابلس الغرب وتونس والجزائر وسلا اذا أردنا ان نقتصر على المدن المهمة لم يكونوا ينبثقون على وجه العموم من بين ظهراني أهالى المغرب بل لم يكونوا ينبثقون حتى من بين الاتراك لان الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم كان معظمهم من الدخلاء او أحفاد الدخلاء في الاسلام) وقد لاحظ دوكاستر ان عدد المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام واستقروا في تركيا او في المغرب (يتجاوز كل حسبان) فمن هؤلاء خير الدين وأخوه وحسن رمضان أمير القراصنة البندقى ، والقرصنى كوبيريلى Kuprili نسيب البابا بى التاسع Pie IX والقرصنى الدركوت Drogouth الذى أسس ولاية طرابلس الغرب ، وقد استنكر الاب دان Dan توارد اليونانيين والروس والبرتغاليين والاسبان والفلامند والالمان وغيرهم ممن كانوا يملأون جوانب البلاد الافريقية ، والحقل العادى لعملية (القراصنة السلاويين) هو بحر الظلمات الذى كانوا يمخرون عبابه صعودا ونزولا حتى الجزر الخالدات الى مياه بريست بفرنسا ، وكانت هذه الجزر تحتضن عام 1595 ميلادية أزيد من ثلاثمائة عائلة افريقية بحيث كان معظم سكان مدينتى فوريطا فانتورا ولا نزاروط Lanzarote - Fuertaventura ـ افارقة وكانت الاولى وحدها تشتمل على ثلاث عشرة قرية افريقيا (هسبريس مجلد 25 عام 1935) ، وقلما كان السلاويون يعبرون مضيق جبل طارق للدخول للبحر المتوسط حيث كان قراصنة الجزائر يتعرضون اليهم مدعين احتكار القرصنة بهاته المياه ، بل كانوا يفضلون الجولان فى لجج الاطلانطيك الى حدود المياه البريطانية بل حتى الى جزيرة نرنوف الامريكية على ان القرصنة ضد الاساطيل الاوربية كان يستغله احيانا ملاكون من بحارى الغرب فقد كان هنالك ضباط ضاربوا فى التأمينات البحرية فسلموا سفنهم الى القراصنة المغاربة وقد ضرب دوكاستر مثلا لذلك البارجة (لارويال) وهى من حمولة 60 طنا ومجهزة بستة مدافع ، فقد سلمت هذه بربابينها والمسافرين المحمولين عليها مع أمتعتهم الى أحد قراصنة سلا يوم 16 شتنبر 1670 ميلادية ، وحكى مويط أن قبطانها الذى هو من مدينة دييب (وهى مدينة فرنسية على بحر المانش) كان قد ضمن لنفسه تأمينات كبرى على سفينته بحيث أصبح غرمها غنما كبيرا .. وقد لاحظ دوكاستر ان القراصنة كانوا يحترمون المراكب التى تحمل على ظهرها رهبانا متوجهين لافتكاك الاسرى رغم ماكانوا يحملون معهم من أموال .

وقد نظمت بعد الدول الاوربية حملات ضد قرصنية سلا ولكن مطاردتهم

وحصارهم وفنبرتهم للقرصان ذهبت ادراج الرياح ، ذلك ان نفس هؤلاء القرصان كانوا محميين من طرف دول غربية أخرى تحالفت مع عصابات اللصوص ايغالا فى الدسيسة ضد ملوك المغرب ، على ان بعض الاقطار الاوربية التى لم تكن تذكيها مطامع بالمغرب كانت تسالم القراصنة حفاظا على وضعها فى البحر ... وكانت دول أخرى تستخلص من علائقها مع القرصان ارباحا طائلة حدتها الى عدم التخرج من مساندة هاته العصابات ، وقد لوحظ أنه فى أواخر العهد المرينى أصبحت مدينة انفا (1) غنية جدا مستقلة عن باقى البلاد فى نظام جمهورية صغرى سكانها قراصنة تربطهم بانجلترا والبرتغال روابط تجارية ، وقد ساعد هذا — التشجيع كلا من انفا وسلا على الايغال فى تمردها ضد السلطة المركزية وعقد عدة معاهدات مباشرة مع أوربا كما وقع لعدد من الدول المسيحية التى عاقدت الجزائر دون اشراف تركيا .

فانعدام اللياقة الديبلوماسية كما يسميه دوكاستر هو الذى أطال ضد ملوك المغرب أمد الحركة الثورية التى خاض غمارها هؤلاء الدخلاء من ضعفة الايمان من المسلمين تلك الحركة التى شجعتها بعض الحكومات تمهيدا لتدخلها العسكرى فى المغرب .



1) تعرض الادريسى الى هاته المدينة فى النزهة فى القرن السادس الهجرى (المصدر المذكور ص 48) ويظهر ان هذا الاسم استحال الى اسم الدار البيضاء فى عهد سيدى محمد بن عبد الله الذى جدد معالم فضالة وهى مدينة اشار اليها الادريسى كذلك .

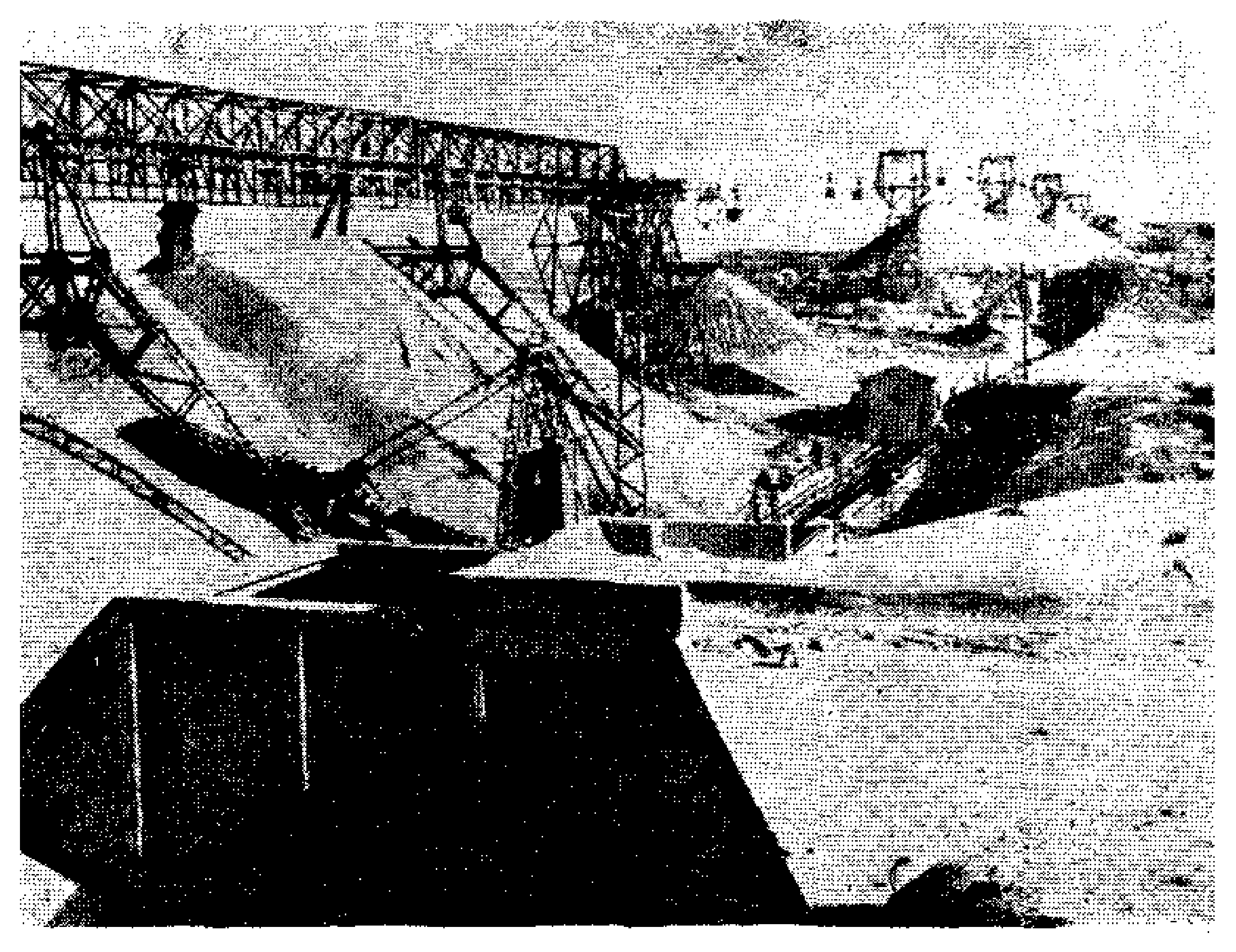
الفصل الثاني عشر :

حركة التحرير في العصر الحديث

عند قيام الدولة العلوية كانت أهم مراكز المغرب الساحلية فى قبضة الاجانب ، فكان الانجليز يحتلون طنجة والبرتغال البريجة (الجديدة) واسبانيا المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش بينما كان الفرنسيون يمخرون عباب البحر بسفنهم الحربية بين سواحل الريف ومصب الملوية ، وكان نجم الاستعمار يظهر رويدا رويدا في سماء تلبدت بالسحب القاتمة واكفهرت لها قلوب الامم المستضعفة .

هنالك قيض الله للمغرب المولى الرشيد المؤسس العملى للدولة العلوية الذى بادر بعد امتداد نفوذه فى الريف الى دعم حوزته بتحصين مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة تكور التى كانت مركز أول دولة عربية بالمغرب فى القـرن الهجـرى الاول وما لبثت الدولة الفتية ان طهرت غربى البلاد وجنوبيها من الامارات الطائفية التى اقتطعتها ومزقت وحدتها ويبدأ بذلك صراع عنيف بين المغرب والانجليـز الـذى كانـوا يساندون الخضر غيـلان .

ثم جاء المولى اسماعيل فعبأ جميع قوى البلاد لاتمام برنامج التحرير الوطنى فاستطاع فى ظرف عقد من السنين ان يطرد الاسبان من المعمورة والعرائش وأصيلا، والانجليز من طنجة وكابد الامرين فى حصار سبتة الذى يقال بأنه استمر 26 سنة ولم يكد يمر ربع قرن حتى أصبح المغرب موحدا وامتدت رقعته الى مجاهل الصحراء وأخصب مناطق السودان حيث لم يسبق للمنصور السعدى نفسه ان وصل ، واعترف المغرب اجمع بأن له ملكا واحدا ـ كما يقول اندرى جوليان ـ أقام ستا وسبعوين قلعة فى مختلف الانحاء تعزيزا لاستقلال البلاد ودعما لوحدتها فاشح السلام وعمت الطمانينة وشاعت الرفاهية وعرف الشعب المغربى الوجه الحقيقـى لهـذه الدولـة التى قامت على سنة الدين لصيانة الوطن المهدد وبعث الاسلام والحنيفيـة السمحـة وانتشر العمران حتى أحصى رحالة فرنسي مائتين وخمسين مدينة عامرة ـ لا تقل الواحدة منها عن ثلاثين الف نسمة ورفرف التسامح بين المتساكنين من مسلمين وغير مسلمين حتى اعترف المؤرخ كويهلير بأن المولى اسماعيل كان (أعظم حمـاة الفرنسيكان) فى العالـم .



من صور المغرب الحديث

وفي غضون ذلك كان الاستعمار يوالى مؤامراته ضد المغرب عن طريق التنافس التجارى تمهيدا للاحتكار الاقتصادى ثم السياسى وكان بعض أصحاب الاطماع يهرجون فى الداخل والخارج ويحولون دون انصراف الدولة الكلى الى مواصلة دعم الاستقلال فى الداخل والخارج وبعد فترة من الاضطراب جلس المولى محمد بن عبد الله على أريكة العرش فاعاد الطمانينة الى البلاد وأحبط الاطماع التى حدت فرنسا الى التوسع غداة معاهدة 1667 فحرر البريجة واستأنف حصار مليلية ونشر القلاع والحصون فى الساحل وبنى معقل الصويرة الاستراتيجي ومرساها فحال دون حركة التهريب والتسرب الاجنبى فى الجنوب وفتح فى نفس الوقت باب المبادلات مع أوربا فى حدود ما يجنيه ميزان المغرب التجارى من فوائد وكان يصرف فيض العملة الاجنبية فى جلب العتاد الحربى ومواد بناء السفن من السويد وانجلترا واستورد بعشة من

الخبراء العسكريين الاتراك لتدريب رماة الجيش المغربي .

وبفضل هذه السياسة الدفاعية أمكن لمعاقل الساحل وبطارياتها أن تصد في ظرف سنة واحدة تقريبا غارتين شنهما الاسطول الفرنسي على كل من سلا والعرائش وكانت فرنسا قد دست أحد رجالها في الجنوب وهو البارون سانطو بين قبائل الشلوح يستفزها ضد العرش .

وكان المولى محمد بن عبد الله أول من شجع الحركة التحريرية الامريكية حيث سارع قبل الجميع الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة .

وقد قضى مولاى اليزيد سنتين في الكفاح من أجل تحرير سبتة وأقام ست عشرة قلعة جديدة في نقط استراتيجية وسلح كلا منها بعشرين مدفعا فاستتم المغرب بذلك اطارا قويا من القلاع الساحلية العتيدة .

ثم جاء المولى سليمان فحرر وجدة من قبضة الاتراك واحيط استفزازات فرنسا وقد ضغط عليه نابليون للانضمام الى ماكان يسمى اذ ذاك (بكتلة الحصار البرى وهي الحركة التي هدف بها الامبراطور الفرنسي عام 1806 الى اقفال جميع الموانىء في وجه انجلترا وقد هدد نابليون ملك المغرب في رسائل شديدة اللهجة باكتساح افريقيا بمائتى الف جندى .

ولكن المولى سليمان قابل ذلك بالرفض والبرود ، غير أن المؤامرات الاوربية استفحلت وتمخضت في النهاية عن اجبار السلطان على التجرد من أسطوله الذي كان يحتوى اذ ذاك على 47 قطعة مجهزة بمدافع وبستة آلاف من البحارة الماهرين .

فلم يبق للسلطان اذ ذاك لحماية الوحدة الوطنية وكيان البلاد واستقلالها سوى مدافعة الدول بعضها ببعض .

غير ان الاطماع الاوربية تبلورت بصورة خطيرة فشبت معركة ايسلى وقنبلت طنجة والصويرة واستعرت حرب تطوان وكافح المولى عبد الرحمن ضد الاطماع الاسبانية في الجنوب كما واجه مشاكل الحدود المغربية الجزائرية مع فرنسا وولى المغرب وجهه صوب الولايات المتحدة الامريكية ففاوضها في حلف عسكرى لاحباط مطامع أوربا وظل المغرب يجابه سلسلة من المؤامرات استمر أوراها نحوا من ستين سنة كابد خلالها أربعة من الملوك العلويين الأمرين واستطاعوا الاحتفاظ في النهاية باستقلال المغرب كما تمكنوا في نفس الوقت من صيانة ثروة البلاد وتنميتها . ففى السنة التي تولى فيها المولى عبد الرحمن اى منذ مائة سنة بلغت رؤوس الغنم وحدها في المغرب 48 مليونا .

وقام بتسع عشرة جولة في الجنوب وحده الى أقصى التخوم لتركيز وحدة



صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس على محراث عصري

التراب وحارب نوعا جديدا من الدسائس الاوربية الناتجة عن مشكلة الحمايات في المغرب غداة حرب تطوان وكان الانجليز والفرنسيون والاسبان يتجاذبون السلطان وكلهم يهدفون لغاية واحدة هي بسط نفوذهم على المغرب ولكن بالرغم عن ذلك كله ظل المغرب محتفظا باستقلاله ووحدته تحت رعاية الدولة العلوية قرنين ونصف قرن .

ثم جاء مولاي الحسن فنفخ في المغرب روحا جديدة وجدد نظام الجيش فلما جاء مولاي عبد العزيز تزايد الضغط واتسعت شبكة التكتل الاوربي ضد المغرب فتكونت في فرنسا على الخصوص جمعية معروفة دفعت بوحمارة الى الثورة ودعا رجال الاقتصاد الفرنسيون للتسرب الى البلاد من خلال الثلمة المالية كما وقع في مصر فاضطر السلطان مرة أخرى الى مدافعة الدول بعضها ببعض وطلب عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي جدد الاعتراف باستقلال البلاد ووحدته الترابية فكان ذلك خير ما قدمه المولى عبد العزيز قبيل الاحلاف السرية . غير ان استمرار الدسائس الاجنبية أدى اخر الامر الى بسط الحماية الفرنسية التي جعل العرش والشعب حدا لها عام 1956 بعد كفاح استمر ربع قرن .

وقد واصل الشعب المغربي كفاحه من أجل استرجاع استقلاله ووحدته فشبت حرب الريف بعد نحو عقد من السنين تكالب غيها الاستعمار الفرنسي والاسباني وقد حاول جلالة الملك الشاب محمد الخامس أن ينقذ خلال هذه الفترة السوداء ما أمكن انقاده بفضل لباقته وحسن مرونته وكان لجلالته اتصال وثيق بالحركة الوطنية وتأييدا خفي لمراميها حتى أعلنت هذه الحركة مطالبتها بالاستقلال عام 1944 فوجدت في صاحب الجلالة الذي كان يمدها في الخفاء سندا قويا ما لبث أن أرسلها صرخة مدوية في خطاب طنجة عام 1947 أمام الملا الدولي في المركز الذي ظل عاصمة المغرب الدبلوماسية حقبة طويلة .

وقد غامر جلالة محمد الخامس بعرشه ونفسه وأهله في سبيل قضية الوطن العليا عند ما وقف في وجه فرنسا وممثليها بالرباط جنبا الى جنب مع شعبه يطالب بالاستقلال ووحدة الكيان فلم يتورع الاستعمار عن الزج بجلالته في غياهب المنفى السحيق ومع ذلك ظل جلالته صامد في وجه الخصم الغاشم صحبة الامراء والاميرات وكان جلالة الملك الحسن الثاني خير رفيق في هذا المنفى لوالده المقدس واحتدمت المعركة الكبرى بين الشعب والاستعمار تأييدا للاسرة المالكة في منفاها فاضطر المستعمر بعد أن حاول الصمود في وجه الشعب الثائر الى الخنوع والانصياع فرجع جلالة الملك من منفاه ظافرا حاملا لشعبه الوفي خير هدية كيلت هذا الجهد الجهاد الطويل وهي وثيقة الاستقلال .

وحتى بعد عام 1956 لم يغمض للملك الظافر جفن حيث واصل الكفاح من أجل

توطيد دعائم الاستقلال والوحدة وتحقيق الجلاء وكان جلالة الحسن الثانى المساعد الايمن لوالده الراحل فى هذا الجهاد الاكبر الذى مازال جلالة الملك الشاب ـ نصره الله يسجل فى حلبته أروع الانتصارات سياسيا واقتصاديا وثقافيا .

وهكذا توالت حلقات الكفاح الـذى خـاض غمـاره ملـوك الدولـة العلويـة ثلاثـة قـرون .



صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس على محراث عصرى

الفصل الثالث عشر :

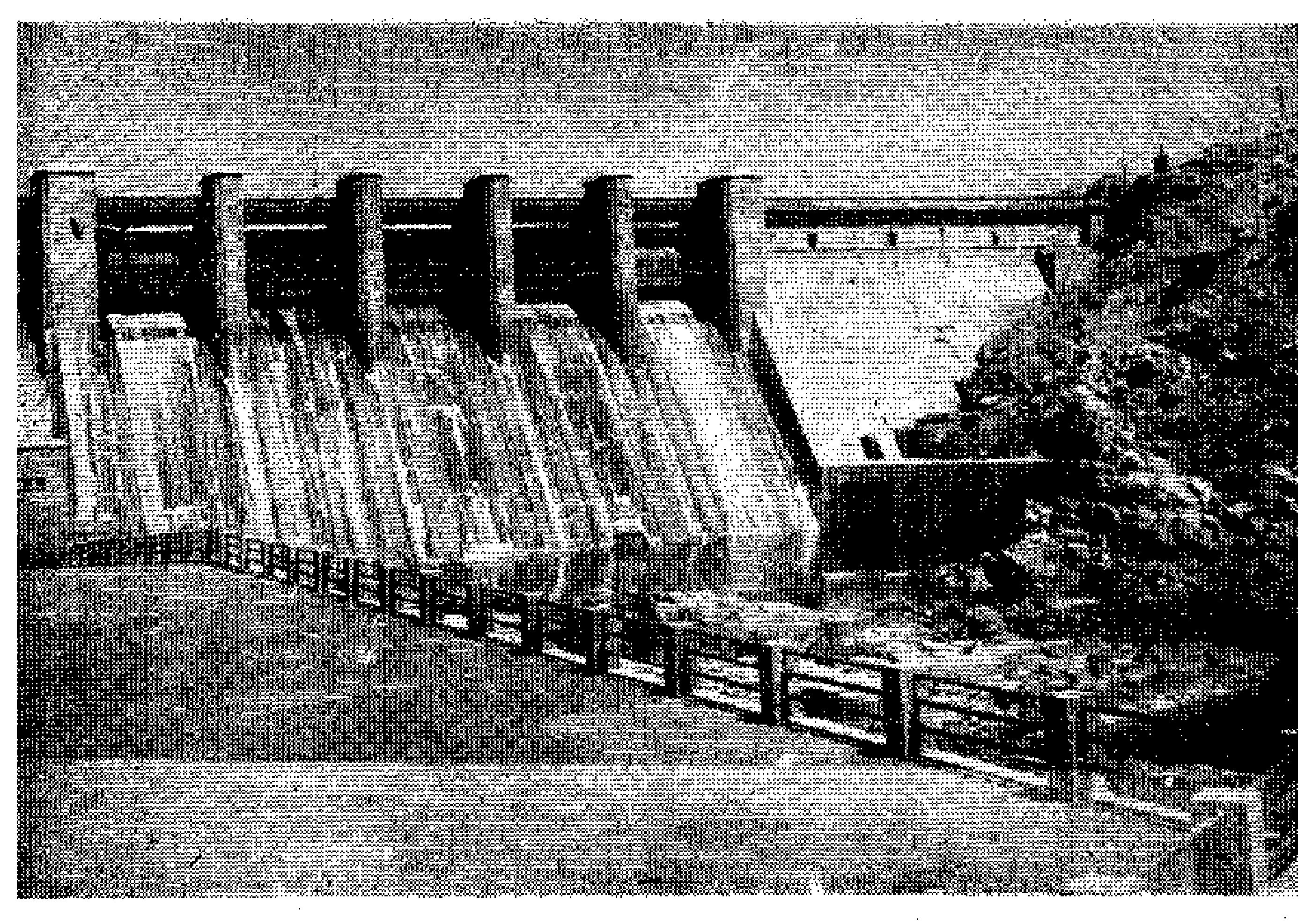
تقاليدنا الدبلوماسية

بعد القرن الخامس الهجرى بدأت العلائق بين افريقيا الشمالية المسلمة وأوربا المسيحية في شكل مبادلات تجارية أدت الرغبة في تنظيمها وتوفير ضمانات استمرارها الى التفكير في عقد اتفاقات ويظهر ان المعاهدات لم تكن تعدو في البداية تبادل رسائل أو رسل يضطلعون بالمفاوضات فلا يتجاوز الاتفاق في نهاية الامر مرحلته الشفاهية التى كانت تعتبر وحدها اساسا قانونيا ينبني عليه فيما بعد الانجاز والتنفيذ وبدخول المقتضيات الشفوية في حيز التنفيذ تصبح لها بحكم العادة والاطراد صبغة اصطلاحية تتسم بها العلائق بين البلدين وتجرى عليها كقاعدة يعترف بها الطرفان بصورة عملية .

ثم تطورت العلائق فاضطر الطرفان المتعاقدان الى تبادل وثائق رسمية تحدد فيها شروط التعامل بصورة دقيقة تكفل استمرارا نزيها للتنفيذ .

ومكاتب أوربا مليئة بنصوص هذه المعاهدات التى يرجع أقدم ما عثر عليه منها الى عام 1157 واحدثها الى عام 1509 باستثناء وثائق العصور الحديثة التى اثبت بعضها دوكاستر في مستنداته . والتى كتب عنها بحاثون غربيون مثل الاستاذ كاييى الذى نشر أخيرا المعاهدات الموقعة بين بعض الملوك العلويين وخاصة سيدى محمد بن عبد الله مع دول أوربية التزم بعضها بأداء جزية الى المغرب مثل السويد والدنمارك ومدينة بريم الالمانية

واول من تصدى للكشف عن معاهدات العصور الوسطى ونشرها طرونسى وفلامينيو وبرونيتى (Tronci, flaminio del Borgo, Brunetti) ثم جاء اسمارى (Smari) فنشر مجموعة اخرى عام 1763 فى مجلد ضخم يحتوى على 74 وثيقة اصلية منها ثلاث عشرة في نسختين بحيث يبلغ مجموع الوثائق المكتشفة 98 منها 45 محررة باللاتينية او الايطالية و 52 بالعربية غير ان هذه المستندات لا تتعلق فحسب بالمغرب العربى الذى ظل خاضعا معظم العصور الوسطى لملوك مراكش بل تخص حتى مصر وسوريا وبعض جزر المتوسط ولكن 41 منها مغربية



من صور المغرب الحديث

بالمعنى القديم لهذه الصفة أي تشمل مقاطعات المتوسط الممتدة من طنجة الى طرابلس الغرب وتحوى هذه المجموعة علاوة عن 14 معاهدة (مسالمة وتجارة) رسائل وجوازات وتوكيلات ومراسيم ملكية (يخص عدد كبير منها القراصنة المسيحين) وتعليمات دبلوماسية .

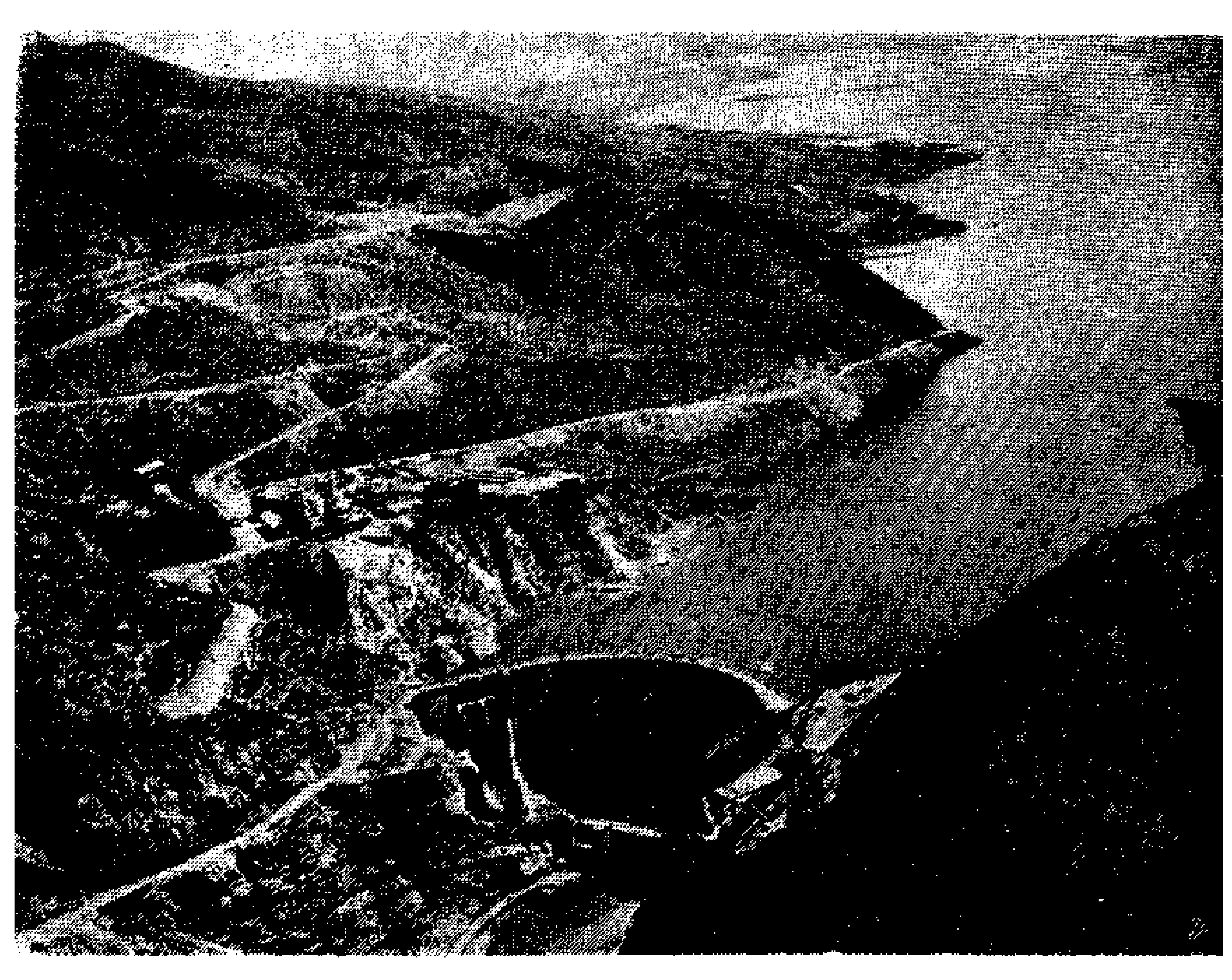
ثم جاء م دوماس لاترى (M. L. De Mas latrie) فجمع الوثائق الدبلوماسية التى كانت خلال العصور الوسطى أساسا وقاعدة لعلائق المغرب ببعض الامم اللاتينية مثل بيزة وفلورنسة والبندقية وجنوة الخ .

فاذا حللنا الملابسات التى أسفرت عن وثيقة 1157 وهى اقدم ما وقع العثور عليه لاحظنا ان المعاهدة كانت تناقش ثم يقرر (نصها) النهائى شفويا اذ عند ما يتم التوافق على النقط الجوهرية يلخص شفاهيا ويصادق عليها بتشبيك الاصابع أو بقسم وتعتبر هذه العملية بمثابة ابرام للمعاهدة ولكن تسلم فى الغالب للسفراء رسالة تنص على انعقاد المعاهدة وتلخص كما وقع عام 1157 الضمانات الاساسية المكفولة للمسيحيين كضمان حياة الافراد وحرية معاملاتهم ويكل المتعاقدان الى العادة والسوابق الواقعية تسوية المسائل الثانوية كالتى تتصل مثلا بمقام التجار الاوربيين والجمارك والصفقات المعقودة .

واول معاهدة مكتوبة وجدت يرجع عهدها الى سنة 1174 م ولكن هناك رسالة وجهها اسقف بيزة الى السلطان الموحدى أبى يوسف الموحدى عام 1181 تشير الى معاهدة مكتوبة ابرمت مع الخليفة الموحدى .

أما فيما يخص الشكليات فان عدم الاشارة فى صلب المعاهدة الى بعضها مثل حضور الشهود ومصافحات التأكيد وترجمة النص – ليس معناه عدم اجرائها – على ان معاهدات القرن الثانى عشر الميلادى تورد اسماء المفاوضين وتعلن ان الله هو خير ضامن وهو الشهيد الوحيد فى امضاء المعاهدة وذلك رغم كون السفراء المفوضين كانوا محاطين فى الواقع بمترجمين وعدول وكتاب أو نساخين وقد تشير المعاهدة احيانا الى تشابك الايدى كعنوان عن ابرام العقد وكذلك الى كون المعاهدة حررت فى نسختين أصليتين أما فى القرن الثالث عشر (لاسيما فى آخره) فان المعاهدات بدأت تشير بوجه عام الى حضور شهود عرب ومسيحيين وتذكر اسم الكاتب والمترجم وما فتئت هذه الشكليات تتطور تدريجيا حتى رايناها تتخذ فى القرن الرابع عشر شكل مراسيم ويقع التنصيص فى صلب المعاهدة على التسلسل التاريخى للمفاوضات وتحرير الوثائق وهاكم – حسبما رواه لاطرى – صورة عن سير المفاوضة بين السفراء الاوربيين وملوك المغرب كما يتجلى ذلك من خلال المعاهدات نفسها .

ياتى السفير المسيحى الى افريقيا حاملا من اميره رسالة اعتماد تخوله حق



من صور المغرب الحديث

التفاوض فيستقبل من طرف ملك المغرب ويرفع اليه تحيات أميره وهداياته ثم يرجو منه أن يحدد له اليوم الذى يمكنه ان يبسط فيه لجلالته بصورة اوسع واتم ما جاء لاجله .

وكان الاستقبال الرسمى يؤجل فى الغالب لبضعة أيام يقضيها السفير فى زيارة الوزراء والحاشية الملكية وفي اليوم المحدد يقدم السفير نسخة من المعاهدات السابقة أو مذكرة تحتوى على بنود مشروع الاتفاق الجديد فصلا فصلا ثم يحرر للسلطان تقرير حول هذا المشروع يحال على لجنة لدرس بنوده .

ونظرا لوجود اسارى مسيحيين فى المغرب كان السفير يغتنم فى الغالب فرصة وجوده بالحضرة السلطانية فيطلب افتكاك بعضهم وكانت الحكومة المغربية تتفضل فى الغالب بتلبية رغبته فتبادر بتسهيل افتكاك الاسرى وقد تتحمل هى نفسها تكاليف الفداء ثم تفتح المحادثات فيما بعد وكانت تجرى فى الغالب بالقصر أو فى منزل أحد كبار الدولة وتنص المعاهدة عادة على نفس المحل الذى انعقدت فيه الجلسات وأبرم فيه العقد وهو اما قاعة الاستقبالات او أحد اجنحة الحدائق الملكية أو منزل أحد الوزراء أو احد اعضاء لجنة المفاوضة كمدير الجمارك المغربية.

وفى جلسات المفاوضة كان أعضاء الوفدين العربى والاوربى يدلون بنقط ومذكرات أى بسلسلة من البنود تشكل مشروعا تمهيديا يتخذ أساسا للمداولات وعند ما يتم الاتفاق بين الطرفين على أسس المعاهدة الجديدة تحرر نسخة من المشروع باللغة العربية أولا فى أغلب الاحيان وبعد تحرير الاصل العربى تنعقد جلسة رسمية لترجمته للغة العربية ثم امضاء النسخ وطبعها بالخاتم الملكى .

وكانت هذه المرحلة الاخيرة تجرى فى أبهة ضمن محفل غفير فى نفس المكان الذى انعقدت فيه جلسات المؤتمر ويستدعى عادة للمشاركة فى هذا الحفل بجانب المفوضين وترجمانهم وعدولهم وقنصل الدولة المتعاقدة والقناصل الاجانب أو بعض أعيان تجار الجاليات الاوربية بالمغرب ورجال الدين المسيحيين القاطنين بالبلدة وبعض الشهود من المواطنين المسلمين وحتى قواد المليشيات المسيحية ـ المنخرطة فى الجيش المغربى ـ الذين طالما أمضوا المعاهدات كشهود .

تلك هى المراحل التى كانت تسبق عادة امضاء المعاهدات بين المغاربة والاوربيين والتى وقع النص عليها فى بروتوكولات المواثيق الدبلوماسية على أن هناك جملة من التقاليد الاستثنائية التى كان المغرب يجريها على بعض الدول دون الاخرى .

كل ذلك يقع اذا ما تم اجراء المفاوضات وتوقيع المعاهدات فى المغرب نفسه أما اذا حرر نص المعاهدة فى اسبانيا مثلا مع سفير مغربى فان طريقة العمل تختصر وقد علل بعض المؤرخين الغربيين هذا الاقتضاب فى الشكليات بوفرة العلائق بين الاسبان والعرب وانتشار اللغتين العربية والاسبانية بين الشعبين فاذا ما تم الاتفاق بين

منظر من ءاثار لوكسوس وهى اول مدينة بناها القرطاجنيون بالمغرب منذ ثلاثة آلاف عام

مظهر من بقايا ءاثار شالة

السفير ووزراءالامير الاسباني حولأسس المعاهدة تتكفل الدبلوماسية الاسبانيةنفسها بتحرير نسختين للمعاهدة بالاسبانية يكتبان حتما فى نفس الوثيقة كل فـى جهـة يفصلها هامش قد سجلت فيه مستندات أخرى ويوقع الوزير الاسبانى باسم أميره على النصين ثم ترسل الوثيقة الى المغرب ليذليها السلطان بخاتمه وامضائه فيحتفظ بنسخة ويعيد الاخرى وكانت هذه الطريقة تتبع فى المغرب الادنى أكثر مـن غيره . وفى بعض الاحيان كان النص الاسبانى المزدوج يسجل فى نسختين منفصلتين يختمهما الامير الاسبانى بطابعه أولا ثم يوجهان الى المغرب بعد ذلك لتلقى الختم السلطانى ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين مختومتين بنفس الطابـع فيحتفظ الامير المسيحى بالنص الذى يحمل طابع السلطان بينمـا يحتفظ هـذا بالنص المختوم مـن طـرف زميله الاسبانى .

والمعاهدة المبرمة عام 1274 م بين ملك ارغون جاك الاول وبين يعقوب المرينـى انموذج لهذه الطريقة الاخيرة .

وتوجد نصوص أخرى حررت بطريقة أخرى منها المعاهدة المبرمـة بتاريـخ 13 ابريل 1339 فى تلمسان بين جاك الثانى ملك جزيرة ميورقة وابى الحسن المرينى ملك المغرب وكذلك المعاهدة التى ابرمت بين أبى عنان وأمير ارغونة بطبرس الرابع عام 1357 وكان نص المعاهدة الاولى ما زال محفوظا فى مكتبة باريس الملكية أواخر القرن الماضى وتتلخص هذه الطريقة الثالثة فى تحرير نص المعاهدة على ورقتين تطويان على طولهما ويسجل النص الاسبانى على اليمين بمحضر السفير المغربى ويذيل الامير الاسبانى كلا النصين بخاتمه ثم تسلم الوثيقتان احداهما الى السفير المغربى والاخرى الى مبعوث اسبانى يتوجهان معا الى المغرب لتحرير النص العربى على عمود اليسار ثم تذييله بامضاء السلطان وخاتمه ويعود السفير المسيحى الى بلده حامـلا نـص المعاهدة وفى معاهدة تلمسان المحفوظ نصها بباريس كتب النص الاسبـانى فـى اليسار وذيل كذلك بامضاءات المتفاوضين والشهود من الطرفين .

وهنالك طراز آخر من المعاهدات يحتوى على فصول وبنود (منمرة) ويرجـع عهده للقرن الخامس عشر الميلادى غير ان هذا النوع لم يتركز الا فى القرن السادس عشر ويقولون بان فصل البنود بعضها عن بعض وترتيبها كان اقل عند المغاربة منه عند الاوربيين ولكنهم يعترفون بانه اقدم عند اولئك (والترقيم) عند المغاربة كان يجرى بالحروف لا بالارقام كما يلاحظ فى نص معاهدة عام 1358 المبرمة بين المغرب وجمهورية بيزة وقد لاحظوا ان (الترقيم) لم يكن يوجد احيانا فى النص العربى .

ويستنتج من مقابلة بعض النصوص العربية للمعاهدات مع النصوص المحررة بالاسبانية أو الايطالية أو اللاتينية وجود خلاف فى كثير من الوجوه قد يشوه احيانا قوام المعاهدة وهذه الملاحظة قد أبداها مستشرقون أمثال ساسي ورينو وأمارى الذين

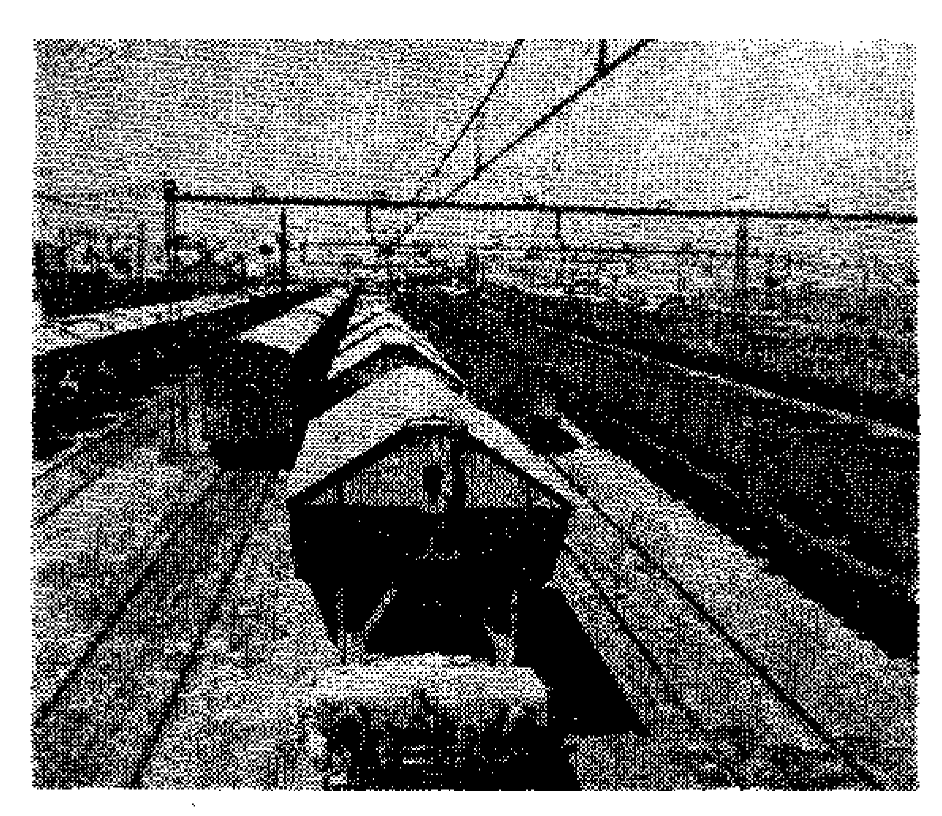


مطرقة من حديد بأزيلال بالاطلس الاوسط

نبهوا على اغفال النص اللاتيني لبنود بكاملها وتحوير اخرى تحويرا يقلص من مداها هذا علاوة على الاقتضاب والغموض وتحريف الاعلام . ولا شك ان ذلك يقلل من قيمة النصوص كوثائق تاريخية وقد ادلى م . لاطرى بأمثلة من هذه التحريفات الخطيرة التى مست بجوهر المعاهدة منها ما وقع عام 1398 حيث اضيف الى النص اللاتيني والايطالى للمعاهدة المضاة فى تونس فصل لا وجود له فى النص العربى الذى يعتبر هو النص الرسمي لانه هو الاصل الذى ترجم منه النص المسيحى ووجه الخطورة فى هذا الفصل المزور أنه يحمل المسؤولية الجنائية للقناصل عند ما يرتكب مواطنوهم اعتداء ما ضد المغاربة مع ان ملوك المغرب العربى عارضوا دائما مبدأ اتخاذ القناصل رهائن للاقتصاص منهم عند الاقتضاء .

تلك صورة مقتضبة عن الشكليات التى كان العمل جاريا بها فى المفاوضات والامضاء على العقود الدبلوماسية .

ونستخلص من هذا العرض ظواهر شتى ابرزها الروح القانونية الدولية التى تشبع بها ملوك المغرب منذ ما يقرب من الف عام ومدى حرص هؤلاء الملوك على ضمان احترام السيادة المغربية حتى فى مظاهرها البسيطة وسعيهم الحثيث لتطوير علائق مسالمة مع اكثر ما يمكن من الدول رغم ما كان يسود العصور الوسطى من حروب اساسها اختلاف العقيدة والانانية العنصرية والمطامع الماديـة .



السكك الحديدية



من صور الأزياء المغربية (أحد الشيوخ)



امرأة مغربية بدوية

فهرس

القسم الأول

المظهر الحضاري الاجتماعي

القسم الثاني

المظهر الحضاري الاقتصادي

القسم الثالث

المظهر الحضاري العسكري والدبلوماسي

مطابع دار الكتاب
الدار البيضاء